معركة لهري

(13 نونبر 1914)

صفحات من الجهاد الوطني



محمد بن لحسن

أستاذ التعليم العالي

معركة لهري

(13 نونبر 1914)

صفحات من الجهاد الوطني

محمد بن لحسن
أستاذ التعليم العالي

معركة لهري (13 نونبر 1914)

صفحات من الجهاد الوطني

تأليف : محمد بن بلحسن

الطبعة الأولى نونبر 2001.

الإيداع القانوني 2001/1493

طبع وتصميم : مطبعة آنفو- برانت 12 شارع القادسية الليدو – فاس.

☏ : 055 64 17 26

مقدمــة

هناك مرحلة خطيرة في المغرب، لم يهتم بها المغاربة الذين عاصروها، اهتماما يذكر، ولا الذين تلوهم، بتدوين أحداثها مع أنها من أخطر ما مر بالمغرب من أحداث، وهذه المرحلة هي مرحلة الصراع المسلح المغربي- الفرنسي، الذي ظلت فيه جيوش الإحتلال وجها لوجه مع سكان الجبال الأطلسية، لمدة لا تقل عن نصف مدة الحماية، والذي بلغ (أي الصراع) في بعض أدواره إلى الحد الذي كان صراع وجود. ومعركة لهري هي إحدى وقفات هذا الصراع، وميزتها أنها كانت حاسمة لمصلحة المغرب.

إن معركة لهري ليست إلا صورة من صور الصراع الحضاري الذي عاشه المجتمع المغربي منذ بداية القرن السادس عشر، عندما قام ذلك التحالف غير المقدس بين الكنيسة وملوك البرتغال ضد الإسلام والمسلمين، ويومئذ خاضت الأمة المغربية قتالا مريرا، استمر عقودا طويلة، اقتلعت في نهايته الثغور المحتلة، فحققت استقلالها عبر القتال، الذي فرضه عليها الاعداء

ثم توالت القرون، وجاءت الغزوة الحديثة التي قادتها فرنسا بعد أن تنازلت لها الدول الأوروبية الأخرى، وتحالفت مع إسبانيا باسم الغرب الصليبي الناهض، كما تحالفت إسبانيا والبرتغال بالأمس.

ولم تقف هذه الوثبة الجديدة - علىغرارالأولى- عند الإحتلال العسكري وما ينجم عنه من نهب لخيرات البلاد، ومن تبعية سياسية، بل كانت تتعدى ذلك إلى استعمار ثقافي حضاري شامل يروم سلخ الشعب المغربي عن هويته الإسلامية، وإلباسه الثقافة اللاتنية

وقد رأت فرنسا أن ذلك يواتيها في أمازيغي الاطلس المتوسط قبل غيرهم، لأنهم حسب زعمها- لم يصبهم التغيير والتبدل، منذ تلك الازمان البعيدة السابقة لمجيء العرب إلى المغرب، ذلك أن أعرافهم وتقاليدهم، لا زالت متمكنة منهم، وبالتالي لم ينل الإسلام من نفوسهم شيئا كثيرا، بل هناك من درج على أنهم لا زالوا على حالتهم "البدائية"، ثم إنهم لم يفكروا إلا في الخلاص من حكامهم الظلمة الطغاة، ولا ينتظرون إلا الاجنبي ليخلصهم من هؤلاء الحكام، وبهذا المنطق التبسيطي اعتقدت فرنسا أن مشروعها الحضاري سوف لن يلقى أدنى مقاومة

غير أن القبائل الأمازيغية، كانت على جانب كبير من الوعي، فإذا تفاعلت مع الفكر الوافد، وقلدت النصارى ذابت في تقاليدهم، ولذلك رفضت التجزئة والتفريق والتقسيم، وفهمت أن في تعاليم الإسلام سر قوتها، فعادت - بعدما كانت مفككة ومتناحرة- إلى التماسك والوحدة، تحت لواء الجهاد، فتوفرت لها الإرادة السياسية وتجسدت في كتلة منظمة تحت قيادة مطاعة.

وما من شك أن القائد موحا وحمو، أدرك ما للمناداة بالجهاد من دور، فرفض الإستسلام، ونبذ وراء ظهره مغريات المستعمر وحياة الترف، وقام يوحد جماهير الفلاحين على مسافات واسعة من المغرب الأوسط، خرجت منها مقاومة، استطاعت أن تقف أكثر من خمسة عشر عاما أمام الغزاة

فما أن بدأت فرنسا تقتطع أطراف المغرب، في بداية القرن العشرين حتى قذف بالمجاهدين في معارك الشاوية (1908) وعلى مشارف السهول، وأبواب مدينة مكناس (1911)، وهضاب ولماس وأداروش، ومنخفض تكريكرة قرب مدينة أزرو...

ولما وصلت الفيالق الفرنسية إلى منحدرات الأطلس المتوسط سنة 1914، عاد موحا وحمو إلى بلاده لخوض حرب ضروس أخرى، دامت زهاء سبعة أعوام، وكانت هذه السنوات كلها سنوات البطولة والإستشهاد، إما لعرقلة تقدم العسكر الإستعماري داخل الجبال وإما للإنقضاض عليه، وإما للكمون له على طريق المواصلات بقصد تدمير قواته، ونشر الرعب في صفوفه

غير أن الذي توج هذا الجهاد المبارك هو الإنتصار الباهر الذي حققته المقاومة في معركة لهري يوم 13 نونبر 1914

تعتبر معركة لهري الخالدة حدثا وطنيا بارزا، خلقت للعقل الإستعماري غلافا من التوتر الدائم، وكابوسا حقيقيا، ولنتذكر أثر

مفاجأة المعركة المرعب على لسان القادة الفرنسيين من أمثال الجنرال هنريس، والجنرال ڤيوم، والمارشال ليوطي، بأنها المعركة التي لم يسبق للجيش الفرنسي أن تعرض لمثلها على مستوى شمال إفريقيا. وحتى وإن لم تستقطب الرأي العام المغربي قاطبة، نظرا للتعتيم الإعلامي والحصار الشديد الذي فرضه المستعمر على الأخبار الواردة من لهري، فإنها (أي المعركة) فجرت حركة عصيان جماهيرية، كادت أن تشهد توحيد المقاومة الوطنية على اختلاف فصائلها.

بيد أنها حققت تضامن القبائل الأطلسية المختلفة مع قبائل زيان، في جهادها البطولي دفاعا عن حوزة الدين والوطن، وصمودا أمام الزحف الإستعماري الفرنسي. وقد استطاع هذا التضامن القبلي، الذي تواجد في أرض المعركة بالدم والمال، أن يسجل في ذلك اليوم أول هزيمة للجيش الفرنسي الذي لم يعرف من قبل سوى الإنتصارات، وأن يحسم لصالح المغرب جولة من جولات الصراع ضد حضارته واستقلال بلاده، كما كان قد سجل من قبل انتصارات ضد الجيش البرتغالي والإسباني في جولات سابقة.

وفي كل هذه الجولات كانت الوحدة بين عناصر الأمة هي سبيل استعادة الحق وطريق تحرير الأرض من غاصبها.

وإن الذي دعانا إلى الإهتمام بهذا الموضوع هو قضية الإسلام المهاجم، فبمجرد أن بدأنا نجمع المعلومات الأولى من مظانها، تبين لنا أن الأمر لا يتعلق فقط بغزو استعماري كلاسيكي، ولكن يتعلق أيضا بصبغ العقول بصبغة فرنسية وتثقيفها بثقافة فرنسية واحتلالها بلغة فرنسية، بمعنى آخر أن الخطر كان يستهدف القضاء على الإسلام ومحو كل مظاهر الحضارة الإسلامية لتدعيم سلطة الكنيسة.

والأمر الثاني هو أن هناك دراسات مغرضة تهدف إلى النيل من وحدة الأمة المغربية كما تهدف إلى زرع بذور الفتنة والتفرقة بين المغاربة العرب والمغاربة الأمازيغيين، وتطمح بالعودة بهؤلاء إلى الأزمنة السابقة لمجيء العرب ومعهم الإسلام.

وإذا كان لا ينتظر من المؤرخين الاستعماريين رواية الأحداث بالمنهجية العلمية نظرا لأن الكثير منهم، إن لم نقل جلهم، حاولوا تشويه الجهاد الأمازيغي، وقدموه في صورة مغايرة لطمس الحقائق، وإخفاء ما يمس بالمجد والبطولات، فإنني بعدما اطلعت على المصادر الوطنية أصبت بخيبة كبيرة، لما لم أجد مايشفي الغليل عند مؤرخينا المعاصرين زمن الواقعة، باستثناء أحمد المنصوري الذي وضع الواقعة في إطارها الزمني بشيء من

التوسع، إذ خصص حوالي عشرين صفحة، بين فيها اطوار الهجو
على مخيم القائد موحا وحموفي قرية لهري وكيفية الرد الزياني

أما المؤرخون أمثال عبد الرحمان بن زيدان ومحمد غريط
ومحمد بن الحسن الحجوي وعبد الواحد ابن المواز...، فإنهم لم
يكلفوا أنفسهم عناء حتى بإيراد مقتضب لخبر واقعة 13 نونبر
.1914

ويبدو أن هؤلاء هادنوا الوضع الجديد، والتزموا ببنود
الحماية، واكتفوا بمطالبة فرنسا بالإيفاء بما وعدت به من
إصلاحات، تُمكن المغرب من التطور السريع، نحو وضع يسمح له
بتسيير شؤونه بنفسه، معتقدين أن المقاومة لا طائل من ورائها.
ولكن كيف غاب عليهم - وهم من العلماء الأجلاء- كل ما كانت تقوم
به فرنسا، وتؤسسه لتشويه العقيدة وضرب الحضارة الإسلامية؟
كيف غاب عليهم أن "السياسة البربرية" التي نهجتها فرنسا في
المناطق الأمازيغية، إنما كانت تهدف إلى نشر العداوة والبغضاء
بين عناصر الأمة ؟

وهكذا يتضح أن الحاجة تدعو إلى الإهتمام بتاريخ المقاومة،
التي قامت على أكتاف المستضعفين والبسطاء الذين لم يفوزوا إلا
ببعض السطور، هي في معظمها قدح وتشويه، وربما صنفوا في
عداد "العصاة" و "الخارجين عن السنة والجماعة"، وذلك قبل أن

تندثر معالم هذا التاريخ وتنمحي آثاره، وتتدخل الأسطورة ويمتزج فيها الواقع بالخيال، فيصعب إعادة المعارك إلى المجال التاريخي.

لقد كان من وراء تأليف هذا الكتيب، إبراز جهاد الأطلسيين الذين تحملوا بصبر عجيب وشجاعة نادرة، شراسة حملات الجيش الفرنسي، دفاعا عن عقيدتهم ووطنيتهم.

وهذا الكتيب يعنى أساسا بالأسباب المفجرة لمعركة لهري واستجلاء ظروفها وأطوارها، لذلك جعلته في قسمين

في القسم الاول درست

1 - فشل غزو زيان رغم احتلال خنيفرة

2 - فشل استقطاب موحا وحمولمشروع الحماية

3- خنيفرة تتحول إلى بريزيديو Presidio .

في القسم الثاني، حاولت استجلاء ظروف المعركة واستشفاف أطوارها في أربع نقط:

1- محاولة فك الحصارعلى خنيفرة باختطاف قائد المقاومة.

2 - الإستعداد للهجوم على مخيم لهري

3 - معركة لهري الأولى والإستيلاء على المخيم

4 - معركة لهري الثانية والنصر المبين .

القسم الأول

الدوافع المفجرة لمعركة "لهري"

1- فشل غزو بلاد زيان رغم احتلال خنيفرة.

تـــم احتلال مدينتي خنيفرة وتازة ضمن استراتيجية للسياسة التوسعية العامة التي نهجها الجنرال ليوطي ، المقيم العام، المكلف بتـــنفيذ مشـــاريع الدولـــة الفرنســـية في المغرب ، وذلك من أجل محاصـــرة تحركات ومواقع المقاومة في الأطلس المتوسط ، حيث انضـــمت قـــوات الجنرال BAUMGARTEN الآتية من وجدة مع قوات الجنرال GOURAUD الآتية من فاس ، ودخلت كلها مدينة تازة ، وبذلك تم ربط الاتصال بين فاس و وجدة عبر تازة

وتكامل هذا المخطط بالإستيلاء على خنيفرة ، عاصمة زيان (12 يونيـــو 1914)، شـــهر بعد احتلال تازة ، وكانت الغاية من عمليات زيان ترمي إلى تحقيق الأهداف التالية

__الأول__ ، توسيع المنطقة الخلفية للشاوية التي كان يتسلل إليها المقـــاومون الـــزيانيون بتحريض من قائدهم (1) ، وينتشرون في المناطق الساحلية بين الدار البيضاء وهضاب المغرب الأوسط.

كـــانت هذه المنطقة الغنية (أي الشاوية) من المناطق الأولى التي عرفت ازدهارا كبيرا في استثمار الأموال المستوردة ، والتي توغلت فيها الرأسمالية الأجنبية مسجلة نجاحها الأول في المضاربة العقاريـــة ، وذلك قبل توقيع عقد الحماية على المغرب (30 مارس 1912). ففي سنة 1911 وصل ثمن المتر المربع من الأرض إلى

25 فـــرنكا ثـــم قفز ليصل إلى 40 فرنكا سنة 1912 ، ف 50 فرنكا سنة 1913 ، ثم 70 و 100 في نفس السنة وكان الهكتار من الأرض يباع بين 60 و 70 فرنكا في المتوسط سنة 1911 ، ثم قفـــز إلى 200 فـــرنكا (2) والحالة أن هذه المنطقة أو ما كان يســـمى ب مغرب الصفقات" (le Maroc des affaires) ، لم تكن في مأمن من غارات المقاومة ، وقد لاحظ Bernard أن

استغلال السهول و الهضاب الواقعة على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع لا يمكن أن يتم إلا بإخضاع الكتلة الزيانية (3).

__الثاني__ وجود بلاد زيان بالأطلس المتوسط المركزي جعلها فـــي وضعية ممتازة ، لا تكاد تجدها عند غيرها من حيث الأنهار العظيمة (أم الربيع) و المراعي الدائمة و الغابات الكثيفة ، ولذلك صنفها ليوطي ضمن المغرب النافع"

__الـــثالث__ انعكـــاس المقاومـــة الزيانية على جزء كبير من المغـــرب الأوسط، حيث عمت موجة من السخط و الغضب كثيرا من قبائله سواء منها المهدئة" (كَروان ، بني مطير ، زعير) أو الـــتي لـــم يصـــلها الاحتلال بعد ، (اَيت إحند ، اشقيرن ، اَيت إســـحاق ...) ، وأصـــبح امـــتداد المقاومـــة متوقعا ، بعد أن أخذ المناهضـــون للتدخل الفرنسي يتوافدون على بلاد زيان (4) ، مما جعل ليوطي يصرح:

إن بلاد زيان تصلح لكل العصاة بالمغرب الأوسط ، وإن إصرار المجموعة الهامة في قلب منطقة احتلالنا وعلاقتها المستمرة مع القبائل الخاضعة ، يشكل خطرا فعليا على وجودنا ، فالعصاة و المتمردون و القراصنة مطمئنون لوجود ملجأ وعتاد ومواد ، وقربها من محطات الجيش و مناطق الإستغلال جعل منها تهديدا دائما بالنسبة لموقعنا (5)

الرابع ، تحكم زيان في الجادة الكبرى التي تربط الشمال بالجنوب عبر تادلة – خنيفرة – فاس – تازة – وجدة، وكما يقول Lucien Saint، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، بدون أطلس خاضع ، يبقى غزو المغرب غير ثابت ومتزعزعا ، من هنا ندرك أن فتح هذه الطريق ضرورة حيوية لإتمام غزو المغرب النافع من أجل ضمان تزويد الميتروبول بما تحتاج إليه من مؤن وجند ويد عاملة، سيما وأن ليوطي بدأ، منذ بداية 1914 ، يستشعر حدوث حرب بين بلاده وبين ألمانيا (6)، كتب A.Bernand يقول:

طالما أن هذه الطريق ليست في أيدينا، فإن وحدة إمبراطوريتنا الإفريقية تبقى غير ثابتة (7).

لهذه الأهداف كان ليوطي يتسابق مع الزمن لإنهاء "مشكلة" زيان قبل أن تقوم*حكومته بسحب عدد من الوحدات المرابطة

بالمغــرب، وإرسالها إلى الجبهة الأوروبية لتعزيز قدرات الجيش الفرنسي ضد ألمانيا.

وقــد أنيط الجنرال هنريس Henrys بمهمة الغزو، وشرع عــلى الــتو بمحاصرة زيان في الميادين الاقتصادية و العسكرية و السياسية

<u>اقتصـــاديا</u>، ارتبط الغزو الاستعماري بالسيطرة على الطرق التجارية بهدف تحطيم التجارة حتى تصبح القبيلة في أمس الحاجة لمساعدة المستعمر، حيث عمل هذا الأخير على تطويق زيان (8)، مــن جميــع الجهات وخاصة من جهة الشمال لحرمانها من تموين الســهول، ومن الشمال الغربي لفصلها عن المراعي الأزغارية ، وعــزلها عــن قــبائل المغــرب الأوسط ، قصد تصغيرمساحتها وتكميشـــها إلى أصـــغر وحدة ، بشكل لا يسمح لها بالصمود أمام العدو وهذا ما صرح به ليوطي نفسه

إن الاعتبار الاقتصادي، يتفق و الاعتبار الحربي،
وحينما أمسك بالسوق إلى جانب مدافعي ، فسوف
أتحكم في البلاد ، ويمكنني حسبما أردت، نشر الرخاء
أو الجوع (9).

وهكــذا تم تحويل الطرق التجارية عن المنطقة ، وأصبحت بــلاد زيــان تحت الهيمنة الفرنسية، في انتظار الهجوم عليها من

جهـــات مختلفة، بعد ما تكون قد أصيبت بالوهن الاقتصادي الناتج عن منع دخول السلع إليها وخاصة الأسلحة.

<u>عســكريا</u>، أقـــام الجنرال هنريس- بعد احتلال قبائل بني مطيـــر وبـــني مكْيـــلد سنة 1913- سلسلة من المراكز العسكرية بإيطو، وإيفران وأزرو (انظر الخريطة). وفي الشمال لبلاد زيان، احـــتل الجنرال F.Desperey قبائل زعير، وأسس مراكز أخرى فـــي تيداس وولماس، والمعازيز، ومولاي بوعزة. وفي الجنوب، كـــانت تادلـــة – منذ سنة 1913- في يد الاحتلال الفرنسي ، بعد الحمـــلة العســـكرية الـــتي قادها الكولونيل Mangin وفي بداية 1914 تـــم إحكـــام التطويق العسكري، كما جاء في تقرير ليوطي الذي بعث به إلى وزارة الحربية:

إن الزياني (أي موحا وحمو) أصبح من الآن فصاعدا محاصرا في جحره (10)

وبـــدأ تـــهيئ العمـــليات ضد زيان، خصوصا بعدما تحقق المخطـــط الأول الذي انتهى باحتلال تازة. وقد أصدر المقيم العام أوامره ليبدأ الهجوم

قبل نهاية موسم الحصاد الذي بإمكانه أن يحرم القيادة من وسائل الضغط ضد العدو، و قبل أن يقل الماء (11).

وقــد تــم الهجوم من ثلاث جهات، كانت تكون ثلاث نقاط ارتكاز وقواعد التموين للجيش المهاجم، انطلاقا من مراكز أفوغال قرب مولاي بوعزة، ووادي إيفران وأبي الجعد.

- من جهة الجنوب، وقع الهجوم حول مريرت في 8 يونيو بقــوات تعدادها ثلاثة أفواج ونصف الفوج، وثلاث سرايا، وثلاث بطاريــات مدفعيــة، يقودهــا الكولونيل Claudel ومعه الجنرال هنريس قائد العلميات العسكرية في بلاد زيان.

- مــن جهــة الغــرب مجموعــة الكولونيل GARNIER DUPLESSIS، وتــتوفر عــلى ثلاثة أفواج، وسريتين من المشاة، وقطعتين مدفعية.

- ومــن الشــمال جــاءت فرقة الرباط تحت قيادة اليوتنان كولونيــل CROS، وتــتكون مــن ثلاثــة أفواج ونصف الفوج، وسريتين وقطعتين مدفعيتين.

كــانت هذه المجموعات الثلاثة تتوفر على عشرة أفواج و7 كــتائب و 7 قطــع مدفعيــة، أي حوالي 15000 جنديا و 360 ضابطا، وقد انطلقت في آن واحد متجهة نحو خنيفرة

وفــي يوم 8 يونيو بدأ رد فعل المقاومة (12)، بعد أن قسم القــائد موحــا وحمو المجاهدين إلى مجموعتين، المجموعة الأولى تهاجم من ناحية وادي ايفران ضد جيش CLAUDEL، والمجموعة

الثانية تحت قيادة ابن عمه موحا وعقى ومستشاره، قائد قرية سيدي محمـــد ابـــن امبارك، ناحية مولاي بوعزة ، تعترض سبيل جيش CROS و .G.DUPLESSIS.

ورغـــم أن المجـــاهدين كانوا لا يملكون شيئا مما يعتبر ســـلاحا الا بقايا من الحروب القبلية أو قطعا صغيرة من الأسلحة الحديـــثة مما استطاعوا أن يشتروه، فإن المقاومة كانت شديدة على مدى خمسة أيام، تضامنت فيها القبائل الموجودة في أرض المعركة بـــالدم و المال. ودارت معارك طاحنة أبان فيها الشعب عن روح قـــتالية عاليـــة، تمثـــلت من خلال جموع الفلاحين الذين تطوعوا للمشـــاركة فـــي الحرب، دفاعا عن دينهم وأرضهم ، كما أبان ذلك الشعب عن الأساليب القتالية الجديدة التي ابتكرها ليواجه بها تفوق العـــدو، ويكسر بها حدة هذا التفوق، فعلى سبيل المثال لا الحصر، تذكر المصادر (13) أن القائد موحا وحمو وضع خطة هجوم على جيـــش كـــلوديل CLAUDEL يـــــوم 8 يونيـــو، تعتمد على حشد مجموعـــة من المجاهدين المشاة، تقوم بحركة مندفعة نحو المعسكر الفرنســـي الموجـــود بوادي ايفران، تليها مجموعة أخرى مسلحة بالخـــناجر. وكـــانت مهمة المجموعة الأولى تنحصر في الإستيلاء على مواقع حراس المعسكر، وعندما يرخي الليل سدوله تندفع إلى داخـــل المعسكر . وبمجرد سماع الرصاصة الأولى، التي يطلقها

حسن بن موحا وحمو، تقوم المجموعة بإطلاق النار بكثافة. وتزداد هــذه الكــثافة شــيئا فشــيئا كلما توغل المقاومون داخل المعسكر الفرنســي. أمـــا المجموعة الثانية، فقد أعطيت لها الأوامر للتدخل والمشـــاركة في الاشتباك عندما يحتد رد فعل العدو. وهكذا اشتبك الطـــرفان فـــي معـــركة عنيفة، استعملت فيها البنادق و الخناجر والحرب، ولم تنته إلا بعد بزوغ فجر يوم التاسع من يونيو 1914، وقـــد أســـفر هذا القتال على 4 قتلى من الجانب الفرنسي من بينهم ضابط و 11 جريحا، ولم تذكر المصادر خسائر المقاومين (14).

وعـــلى الجـــبهة الشمالية الغربية دارت معارك أخرى حول مـــولاي بوعـــزة وڭلموس، سعى فيها المقاومون إلى قطع الطريق عـــلى جيش CROS. حيث هاجمت قبائل آيت بوخيو مركز مولاي بوعـــزة، كمـــا قامت كوكبة من فرسان القبائل باعتراض الكتائب الفرنســية في المكان المسمى "عوينات"، وعندما وصلت مجموعة CROS إلى الممـــر الجبـــلي "تازروت موخبو (الحجرة المثقوبة) دارت معركة أخرى

وقـــبل دخول القوات الفرنسية عاصمة زيان، يوم 12 يونيو، نـــزلت المقاومـــة بكل ثقلها، وأخذ المجاهدون في الجبال المحيطة بخـــنيفرة، يناوشـــون العدو طيلة النهار. وفي التقارير التي دونت أحداث هذا اليوم، يقول أحد الضباط المشاركين :

استمر الزيانيون في مناوشة المجموعات الثلاثة بعناد كبير واستهانة بالموت (15).

ويقدم لنا ضابط آَخر صورة أخرى ، تجسد معنى الإصرار الزياني على مقاومة المحتل رغم احتلال المدينة

ظل فرسان زيان يناوشون المجموعات الثلاثة طيلة ذلك اليوم، ويحومون حولها كالزنابير، مهددين بجسارة مجنونة دفاعات الفرنسيين، الذين كانوا يردون على مهاجمتهم بفتور (16).

وهـــنا نضـــع ســـؤالا هـــل انتهت مقاومة زيان باحتلال عاصمتهم ؟

استنادا إلى التقارير الفرنسية (17)، لم يخف ليوطي إعجابه وازدهاءه بما حققه جيشه فهاهم الزيانيون قد غادروا مدينتهم لشدة مـــا داخـــلهم من الخوف، وحزموا أمتعتهم، وأخرج موحا وحمو أثقالـــه وذهب إلى الجبال من ليلته منكسرا، وتم ربط الاتصال بين مراكش وفاس عبر خنيفرة، وأصبحت السهول و الهضاب الواقعة عـــلى الضفة اليمنى لنهر أم الربيع في مأمن من غارات المقاومة، بحيث يستطيع المعمرون الاستقرار على الساحل الأطلسي، و البدء فـــي اســـتغلال المغرب النافع (18) وحيل بين القبائل وبين

مراكــز تمويــنها، فهي لا تستطيع الآن النزول إلى السهل لقضاء أوطارهــا، نــاهيك عــن فصل الشتاء المقبل الذي لا تستطيع فيه مغــادرة جــبالها المكســوة بالثلوج، لانتجاع أراضيها الشتوية في الأزغــار ومراعيها في السفح، لأن في حالة نزولها ستصبح على مــرأى من محتلي خنيفرة، وفي تناول مدافعهم، ومن ثم – حسب زعــم ليوطــي – لــن يلبث الزيانيــون أن يتشكــوا من الفقــر والــبؤس، ويعــودون إلى أراضيهــم الأزاغارية، بعد استسلامهم عــلى غــرار مــا وقع لبني مطير وبني مكْيلد سنة من قبل، وقد وصف J.D'ESME احتلال خنيفرة بأنه

بمثابة القلب وفلذة الكبد وإنجاز العمر (19)

وإتمامــا للصورة وتعضيدا للفكرة ، نسوق فقرة من رسالة ليوطي التي بعث بها إلى صديقه .A. Lazard

إن احتلال زيان – في وسط الجبل – الذي تم تنفيذه في مدة ثلاثة أيام بمشاركة ثلاث فرق عسكرية في حركة مندفعة نحو خنيفرة ، لهو – في حد ذاته – إنجاز ضخم بالنسبة لوجودنا في المغرب ، يفوق ما حققناه في تازة (20)

مجمــل القــول إن احتلال خنيفرة توج نهاية غزو المغرب النافع، وفتح الطريق بين الجهة الشرقية والجهة الغربية، وأكثر من ذلك ربط الإتصال بين المستعمرات الفرنسية في الشمال الإفريقي،

وأصــبحت خــنيفرة حصنا حصينا في وجه تسربات المقاومة ضد "مغرب الصفقات

لقــد تحقق هذا الإنجاز في وقت كانت فرنسا في حاجة إلى مجندي المغرب ، وإلى موارده لتعزيز قدراتها الدفاعية ضد ألمانيا، وحســبنا أن نســتدل على ذلك بان ليوطي رفض أوامر حكومته، عندما طلبت منه سحب الجيش من داخل المغرب وحصر الاحتلال في السواحل (21)

لكــن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل نجحت هذه العزلة الجغرافية و الاقتصادية التي فرضها ليوطي على زيان ؟

خلافا لما كان يعتقده ساسة الاستعمار و على رأسهم الجنرال هــنريس مــن أن الزيانيين لا يفكرون إلا في الخلاص من قائدهم الظــالم الطاغي ، وأنهم ينتظرون مجيء الفرنسيين لإشعال الثورة ضــده ثم يسلمون لهم الزمام، فإن ذلك لم يحدث ، ولا شيء منه، عــلى الرغم من أن الغزاة سعوا إليه واستهدفوه، وأعلنوا أنهم قاب قوسين أو أدنى منه في القضاء على المقاومة وتفكيك وحدتها (22).

صــحيح أن ســقوط خــنيفرة هز بدرجات مختلفة زيان من أقصاه إلى أقصاه، باعتبارهــا رمز عظمتهــم ومركز فخرهم، كما هــز القبائل الأطلسية المجاورة (23)، لكن ماذا يمثل هذا الاحتلال

وســـط جماهيـــر الفلاحين ا لذين – وإن غادروا مدينتهم بانقباض القلب – لم يفروا من القتال (24).

فإذا تأملنا شهادات الضباط التي يشهدون بها على أنفسهم في مذكـــرات أو رسائل أو تقارير، فإن احتـــلال المدينة لم يفـــل من عـــــزم الزيانيين، ولم يفت من عضدهم، بل زادهم إصرارا على مناوشـــة العـــدو ومكافحته بجسارتهم المعهودة (25). فهذه خيامهم الســـوداء، البعيدة بمسافة قليلة عن المدينة السليبة ، لا زالت قائمة في سهل خنيفرة ، وهذه قبائلهم تواصل انتجاعها غير مكترثة و لا عابـــئة بوجود المحتل (26)، وهذه قطعا نهم من المواشي والدواب والأغـــنام، تـــتوجه إلى مسارحها، والرعاة يستحثون الخطوات في أعقابهـــا غير مبالين بالدخلاء. وعلى مدى البصر، على قمم جبال بوحيـــاتي وأبي موسى وتاغاط والتلال المطلة على خنيفرة، أخذ عشـــرات المئات من المقاومين مواقعهم لمراقبة وترصد حركات جيش العدو، منعا لأي اتصال بينه وبين المراكز الأخرى (26).

ولمزيد من الوقوف عند هذه الوثائق، التي نجدها في الغالب عبارة عن تصريحات رسمية لبعض القادة العسكريين الذين شاركوا في احتلال زيان، نختم بشهادة المسؤول الكبير وهو ليوطي، المقيم العـــام، وشهادة الجنرال هنريس المسؤول الكبير عن غزو القبائل الأطلســـية. يعترف الأول، في تقرير حول الوضع العام للحماية أن

الإســـتيلاء على خنيفرة لم ينه "مسألة زيان" (27)، ويكتشف الثاني أن اخـــتيار القـــوة يـــوم 12 يونيـــو 1914، لم يفض إلى النتائج المتوقعة، وبالتالي لم يسفرعن تفكيك المقاومة، حيث يقول:

إننا لم نستول إلا على بلدة خالية تماما من سكانها (28)

وبـــالفعل كان خروج هذا القائد العسكري يوم 15 يونيه في اتجـــاه أدخسان (جنوب خنيفرة) قد أضاء له السبيل، وأعطاه إلمامة عـــن وضـــعية زيان السياسية، خلص منها إلى أن خنيفرة – رغم مظهـــرها الضـــخم– لـــم تكن أبدا سوى مركز تجاري كبير، على مفترق الطرق المؤدية إلى مكناس وولماس وقصبة تادلة، ومحطة عـــبور المنتجعين بين الجبل والأزغار. ونظرا لأنها تقع في سهل قليل الإنتاج، فقد كانت مكانتها السياسية ثانوية. في حين إن المركز الحيـــوي لزيان يوجد جنوبا حول أودية شبوكة وسرو ولهري، في مـــنطقة غـــنية بفلاحتها ومراعيها، وعلى اتصال مباشر مع قبائل اشقيرن وآيت إسحاق. وقد خطر ببال الجنرال هنريس أن يستولي على قرية أد خسان، ويؤسس مركزا عسكريا متقدما يطل منه على الجبال الزيانية، ويكون نقطة ارتكاز لوثبة جديدة في اتجاه أروكو، ولقباب، وزاوية أيت إسحاق. إلا أن الخسائر التي كبدته المقاومـــة (17 قتيلا و77 جريحا) كما سيأتي، جعلته يعود على عقبيه (29).

كـــانت هزيمة خنيفرة صدمة راضة، ولكنها شكلت في نفس الوقت، للمخيال الزياني، مهمازا حافزا على الصمود والبقظة. فقد سـجلت لــنا المصادر (30) أن اجتماعا لـ " قيادة المقاومة انعقد غداة احتلال خنيفرة لتقويم الوضع ومعرفة الآراء المختلفة

وكـــان موحـــا وحمـــو قـــد ألقى خطابا، خصصه كله لهذا الموضـــوع، قـــال: إن الحرب لا تخيف زيان، فهي تجري في عروقهم كما يجري النسغ في الأشجار التي تنبت في أرض معطاء، وحتى عندما نقطعه أو نقتلعه و نترك في الأرض أصغر جذر، فإنه يخـــلف وينمو من جديد ثم استطرد يقول "إن ضياع المدينة أهـــون علينـــا إذا كان سيؤدي إلى إلحاق هزيمة بالعدو. فلو دافعنا عـــنها ولم نغادرها، فلن يتردد المستعمر في مواصلة قصفها حتى يهدمها، و الله وحده أعلم بما سيقع لسكانها، ثم كيف يمكن أن نتزود لـــو بقيـــنا فيهـــا ؟ أليس من الأفضل أن نحاصرهم خير من أن يحاصـــرونا ؟ أليـــس من الأحوط أن نترك المحتل يسقط في الفخ، بإيهامـــه أنه انتصر انتصارا كبيرا ؟ ما نبغي هذه خيامنا وقطعاننا وأسلحتنا، وكل مقوماتنا لا زالت في أيدينا (31).

ثـــم دعـــا زيـــان إلى ترك الضغائن الدموية، إذ بدون وئام يضمن التعايش السلمي، بل التعاون فيما بين القبائل، لن يصبح في الإمكان القيام بالمهمة التي تمت من أجلها مغادرة المدينة، ومن هذا

المـــنظور أعلن رسميا أن الثأر مرفوع بين القبائل ولا ضغينة بعد اليـــوم، وأن واجـــب المجاهدين هو التحريض على مواصلة القتال والتصـــدي لقـــوات الاحتلال والاستعمار. وقد انفض الجمع على السمع و الطاعة وهتف الحاضرون:

نحن وراءك في أقوالك وأفعالك (32).

ومـــنذ ذلـــك المؤتمـــر"، شرع القائد في إعادة تنظيم المقاومـــة، وفق استراتيجية جديدة تهدف إلى وضع المدينة السليبة تحـــت الحصـــار. ومن أجل ذلك، وبعد التعرف على قدرات العدو وعـــلى خططـــه وتحركاته، التجأ اضطرارا إلى الجبال المجاورة لـــترتيب أمـــور الجهـــاد فـــي الميـــاديـــن الســـياسية والعسكرية والاقتصادية، أملا في إحراز انتصار على الغزاة.

<u>فـــي الميـــدان السياسي</u> : كانت الوحدة بين القبائل إحدى آليـــات الجهـــاد، فقـــد أدرك موحـــا وحمـــو أن الاستعداد النفسي والاجتماعي أساس من أسس الإعداد لمحاربة الدخلاء. ولذلك عمل على بناء الجبهة الداخلية، وتهيئ أبناء زيان على اختلاف مشاربهم السياســـية والاجتماعية لمهمة الجهاد التي أصبحت – بعد تعرض المغـــرب لاحتلال فرنسا- مهمة أساسية تذوب أمامها كل العقبات، وكل الخلافات (33).

وكانت هذه الوحدة متينة بفضل العقيدة الإسلامية التي جعلت مـــن الزيانيين شعبا متحدا ومتكتلا، إذ لا يمكن لمجتمع إسلامي أن يكون استعداده تاما وكاملا إلا إذا كانت وحدته الوطنية بين أفراده قائمـــة عـــلى أســـاس العقيـــدة، فالإسلام هو الذي أجج في نفوس الزيانيين شعلة الجهاد بسبب وجود المسيحي على أرضهم. ورغم ما أصيبوا به من جراح مثخنة، ورغم تعبهم وإنهاكهم، فقد عادوا إلى ســـاحة القتال في اليوم الثاني من الاحتلال، يضعون نصب أعينهم الشـــهادة في سبيل الله، وهذا ما أدى إلى نسيان الفشل في المعركة والحزن على فقدان المدينة (34).

هناك إذن عتبة مرور ونقطة تحول من حالة التنافر والتناحر إلى حالة الوعي بقيادة معتزة بدينها لطرد عدو الدين الذي هو أيضا عـــدو الحـــرية، فلا فصل عند هذه المقاومة بين حرية الدين وبين الحوزة الجغرافية التي نبت فيها الدين

وفـــي الميدان الزراعي كانت القضية الأولى التي لابد أن تواجه موحا وحمو هي التفكير في حل مشكلة الغذاء للزانيين الذين حيـــل بيـــنهم وبيـــن الأزغار مخزن الحبوب" وخاصة القمح و الشـــعير والقطاني، وهي الزروع التي كان يعتمد عليها السكان في تغذيـــتهم (35). وقد أظهر اهتمامه بهذه القضية منذ البداية، حيث وجه دعوة واضحة إلى التضامن والتكافل بين جميع القبائل، ولكي

يترجم هذه الدعوة إلى واقع اجتماعي ملموس، قام بتوزيع الأراضي الجبلية، واقتطع لكل قبيلة فقدت أراضيها الأزغارية مساحة من الأراضي الزراعية الموجودة في المثلث الواقع بين لهري-سرو-وأم الربيع، وبين سفح الجبل الزياني بشكل ينسجم مع مقتضيات التغيرات التي طرأت على الساحة الزيانية (36). وكانت هذه الأراضي تنتج أساسا القمح و الشعير و الذرة مع زيادة في نسبة الشعير التي تحتل المرتبة الأولى بين المزروعات الأخرى ، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن زيان كانوا مولعين بتربية الخيول التي تعتبر عنصرا أساسيا في مقدرتهم العسكرية (37).

علاوة على ذلك كان مصدر القوة للمقاتلين يأتي من النشاط الرعوي، فالإطار الجغرافي الذي نزحت إليه القبائل يقع في وضعية ممتازة من حيث وفرة المياه المتدفقة، ومياه نهر أم الربيع وروافده، الشيء الذي يضمن لقطعانها الكثيرة المراعي الجيدة والدائمة، صيفا وشتاء (38).

<u>في الميدان التجاري</u>: ذكرت المصادر الفرنسية (39) أن زعيم المقاومة دعا تجار خنيفرة إلى إفراغ حوانيتهم وحزم أمتعتهم واقتفاء أثر القبائل الزاحفة نحو الجبل. و أوكل إليهم مهمة ربط علاقات تجارية مع مدينة الدار البيضاء عبر تادلة، ومع فاس ومكناس عبر الأطلس المتوسط. وقد بقيت علاقة الزيانيين بهاته

المـــدن علاقة عضوية إذ لم يعد بإمكانهم الاستغناء عن مشترياتهم مـــنها، فظلوا يجلبون مواد مصنوعة أو بضائع أوروبية كملابس القطـــن و الســـكر و الشاي و العطور و الحلي وذلك ما يثبته M.LE GLAY بقوله:

لقد لاحظنا خلال السنين التي تلت احتلال خنيفرة أن الأسواق الزيانية داخل الجبال ، نادرا ما كانت ما تنقصها السلع مثل السكر و الأقمشة القطنية (40).

ولـــم يتســـاهل القائد مع أولائك التجار الذين جعلوا من الـــربح شـــغلهم الشـــاغل ، وآثروا التجارة على الجهاد واستعانوا بالأعداء في سبيل تحقيق اهتماماتهم الميركانتيلية ونشير هنا أنه ســـبق للبرجوازية التجارية المغربية أن عبرت عن هذا الموقف بعـــد فشل التجربة العزيزية حيث كانت تجسد فكرة استحالة إنجاز سياســـة إصلاحية دون الخضوع لوصاية أجنبية أو حماية دولة من الـــدول الأوربيـــة القويـــة ، وتعتقد أن التدخل المجبر للأجنبي هو الكفيل بالنهوض بالبلاد و الخروج من النفق(41). وما تجار خنيفرة إلا جـــزء من هذه البورجوازية التي كانت ترى أن المقاومة لا طـــائل من ورائها، وأن تدخل النصارى في المغرب، إنما هو أداة الإصلاحات ومفتاح التحديث (42)

استفز هذا الموقف مشاعر المقاومين ، ورأوا في هؤلاء التجار الخونة خنجرا في صدر الإسلام و المغرب لا يقل خطرا عن الغزاة. ولذلك، أمر القائد بإعدامهم عندما علم أنهم دخلوا في مفاوضات مع المحتل الذي حاول إغراءهم بالعودةِ إلى دكاكينهم في المدينة (43).

وهكذا انتقل النشاط التجاري إلى وسط الجبال في مراكز مثل جن ألماس وبومزيل ، وأفلكتور إلخ. وازدهرت التجارة حيث استمر الزيانيون في تسويق منتجاتهم الحيوانية والزراعية و الحرفية، وفي التزود بما يحتاجون إليه من البضائع المغربية والأوروبية.

<u>في الميدان الفكري</u> : يجب أن نسجل أن الفقهاء باعتبارهم رموز الأمة في المحافظة على قيمها وتوجهها الحضاري، وضمان انتقال التراث من جيل إلى جيل سليما من كل شائب، كانوا يمثلون المقاومة حضاريا وريادة.

وانطلاقا من هذا الدور الخطير قاموا، منذ وصول المستعمر إلى شواطئ المغرب، بتعبئة المغاربة، واستنفارهم إلى ساحة العراك، وأوجبوا عليهم أن يتوحدوا تحت لواء الجهاد بكل صدق وإرادة وتضحية، وأن يسهموا في المجهود الحربي كل حسب

طاقـــته، ومن لم يستطع حمل السلاح فعليه أن يجاهد بماله أو بما يملك من أسباب الدعم (44).

وبإيعـــاز مـــن هذا الوازع الديني هرع الناس من مدا شرهم ودوا ويــرهم فـــي آثـــار لايـــزال بعضها يفيض إلى الآن عاطفة وحماسة في أفواه المسنين، رغبة في الالتحاق بالمقاومة، ولو ذهبنا نســتقرئ شــواهد التاريخ لما استطعنا أن نحصر في بحث محدود المجال الأمثلة الحية على استجابة المغاربة لنداء فقهائهم

وحسبنا أن نذكر في هذا السياق محمد بن عبد الكبير الكتاني مـــن فاس الذي جاهر بالجهاد، وترأس اجتماعا ضم زعماء القبائل الأطلسية (45)، في مكناس سنة 1908، وكذلك صاحب نصيحة أهـــل الإســـلام (46) الـــذي قـــام بفضـــح مؤامرة الاستعمار، واســـتنهاض همـــم المغاربة للدفاع عن كرامتهم، والمجاهد الكبير الفقيـــه مـــولاي أحمد السبعي (47) الذي تميز بشجاعة نادرة في معركة بوذنيب (1908)، و الذي كان يطوف الأطلس صارخا في وجـــه القبائل وداعيا إياها أن تشد حيازمها للقتال، ومحرضا لهـــا فـــي خطبه ومواعظه (48). ومن زيان نذكر الفقيه محمد واعزيز شـــيخ زاوية سيدي عمـــر، والعلامـــة أحمد الومكاتي من قريـــة تونفيت (49)

غيـــر أن الـــذي كان له صدى كبير وتأثيرعميق في نفوس القـــبائل الأطلســـية هو سيدي علي امهاوش الذي كان يتمتع بنفوذ منقطع النظير، امتد من الجبال إلى تخوم تافيلالت (50). حيث كان يحذر الناس، منذ أن اقتطعت فرنسا أجزاء من المغرب، مما كان الاســـتعمار يسعى إليه من تنصير لهم، وصرفهم عن تحكيم شريعة الإســـلام. وقـــد وصفه الماركي دي سكونزاك le marquis de Segonzac بأنه:

كان منذ وفاة سيدي العربي الدرقاوي أقوى شخصية دينية في الجنوب الشرقي (51).

كان سيدي علي هذا يخاطب الناس بواسطة تلاميذه ومريديه الكـــثيرين الذيـــن كانوا يجوبون الأسواق و القرى مرددين تعاليم شيخهم، ومن أمثلة ذلك هذه الرسالة

أيها المجاهدون، يقول لكم سيدي علي : يا شجعان، اصنعوا البارود و الرصاص، وحاربوا الفرنسيين الذين يريدون استعبادكم (52).

وإذا كـــان هـــذا النص ليس بحاجة إلى تفسير لوضوحه فيما يعكسه من استعداد لمواجهة الغزو، فإن هناك نصا آخر ورد فيه أن استرداد الحق ومقاومة الاحتلال في جميع صوره وأبعاده لا يتأتى إلا بالتشبث بالذات في بعدها الروحي الإسلامي

إخواني المسلمون ، السلام عليكم ، جئت لأحمل إليكم كلام الله الذي يريد منكم أن تحاربوا من أجل دينكم وبلادكم (53).

وهكـذا بـرز سيدي علي أمهاوش في طليعة المنافحين عن الديار التي استولى عليها المستعمر. وكانت منافحته بالسيف عندما سـاند المقاومة الزيانية بمجموعة من متطوعي قبائل اشقيرن غداة احتلال خنيفرة (54). ثم جاء بعد ذلك شخصيا (غشت 1914) على رأس فرسـان قبائله، فخيم على وادي سرو (الحدود الطبيعية بين اتحاديتي زيان واشقيرن) لشن غارات على مركزخنيفرة، ومهاجمة قوافـل الـتموين الغاديـة والجائية بين هذا المركز وبين مركز تادلـة (55).

2- فشل استقطاب القائد موحا وحمو لمشروع الحماية .

إن الحملة التي قام بها علماء الأطلس أيقظت القبائل وأزالت الحجـب عـن أعينها، فأججت فضائلها الروحية وعبأت كفاءاتها الـبدنية، وحـركت العزائم نحو القتال. كما قامت بوضع المقاومة عـلى أسس المرجعية الحضارية الإسلامية، حيث تشبع المقاومون بفكـرة الجهاد وفي مقدمتهم القائد موحا وحمو الذي حاولت فرنسا اسـتقطابه لينضـم إلى مشروع الحماية، كما حدث مع كبار قواد الجـنوب ونعني به أسلوب الغزو السلمي الذي أورده ليوطي في

خطـــته عـــند احتلال الأطلس المتوسط. وقد حكمت هذا الأسلوب عوامل ثلاثة جوهرية هي

1- إن إيمازيغن لهم قابلية الاستعمار، ولا ينتظرون إلا وصول الفيالق الفرنسية إلى بلادهم للارتماء في أحضانها.

2 – إن فرنسا لا تريد المجازفة بأبنائها ضد مقاومة متحصنة في الجبال.

3 – إن فرنســـا تمكنت من احتلال الجنوب (حوز مراكش، ســـوس...) بواســـطـــة القـــواد الكـــبار (الأڭـــلاوي، المتوڭي، الڭوندافـــي ...)، الذين قاموا بإخضاع قبائلهم لصالح الحماية دون مشاركة الجنود الفرنسيين. وفي المقابل، منحت لهم حرية التصرف اتجاه قبائلهم الشيء الذي زاد ثراءهم ووزنهم. كتب ليوطي يقول

لن أتردد في إعطاء الأفضلية لحكم القائد الكبير، لأن هذا الأسلوب ينسجم مع نظام الحماية ، فهو يتصف بالمرونة وغير مكلف، ويتطلب موظفين أقل، ويحافظ أكثر على احترام التقاليد القديمة (56).

لقد رفض ليوطي منذ بداية عهد الحماية تحديد سلطات القواد الكبار لأنه كان يعتقد أن نجاح فرنسا في الجنوب، إنما كان يرتبط بهؤلاء القواد الذين لم يكونوا مجرد أشخاص عاديين يشتغلون لحساب قوات أجنبية، بل كانت لهم شهرة ومكانة سامية في

مناطقهم الخاصة. ألم يتآمروا مع الكولونيل Lamotte سنة 1913، على تفكيك حركة الشيخ أحمد الهيبة، وجهزوا حملة عسكرية مكونة خصيصا من الأهالي للقضاء على هذه الحركة ؟ وبناء على ذلك، لماذا لا يحاول ليوطي خلق قيادات كبرى أخرى في الأطلس المتوسط؟ (57).

بعـد نجـاح سياسـة القيـادات الكبـرى (les grands commandements) فـي الجنوب مع الأگـلاوي و المتـوگي والگوندافي وعمر السكتاني حاول ليوطي استمالة موحا وحمو بصـفته مـن كبار قواد المخزن، واستغلال نفوذه لصالح الحماية، ليصـنع منه كلاويا آخر في منطقة المغرب الأوسط (58)، وذلك بهـدف الوصول إلى نتيجة مزدوجة إخضاع زيان بدون حرب، وإطفـاء شعلة الجهاد بأسرع ما يستطيع حتى لا تمتد شرارتها إلى مناطق أخرى (59).

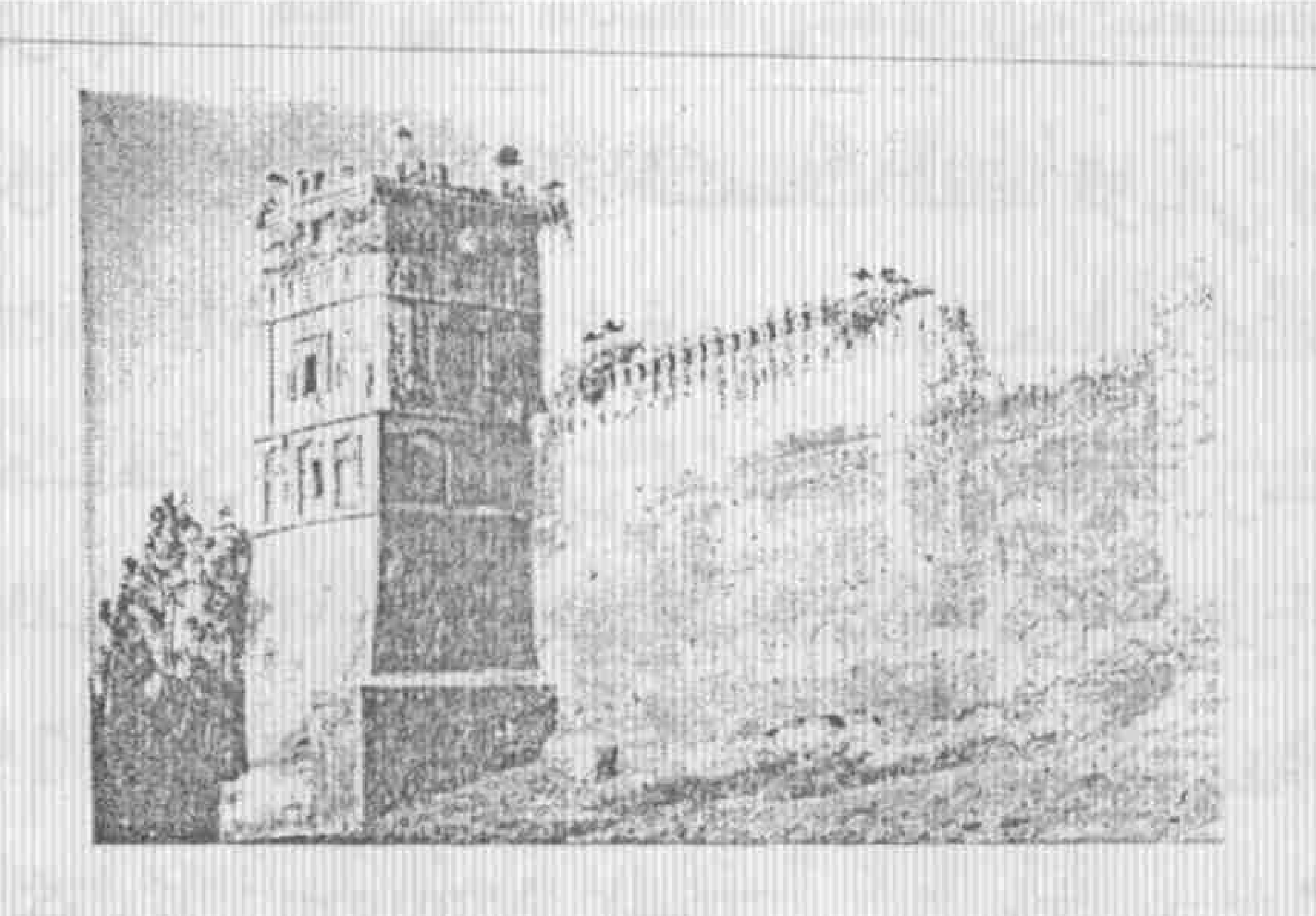
لم يكن ليوطي ليشك في أن الزعيم الزياني سوف يحذو حذو أعيان الجنوب وينضم إلى مشروع الحماية. ومما زاد من يقينه هو اندحار جيش أحمد الهيبة أمام القوات الفرنسية في سيدي بوعثمـان (60)، ودوي المعـركة الـتي كانت لها آثار سلبية على المقاومة الوطنية من الجنوب إلى الشمال (61).

لقد ظن ليوطي أن صدى هزيمة سيدي بوعثمان سيثني موحا وحمـــو عـــن المواجهة المسلحة ضد الجيش الفرنسي، ويدفعه إلى ربط الاتصال به.

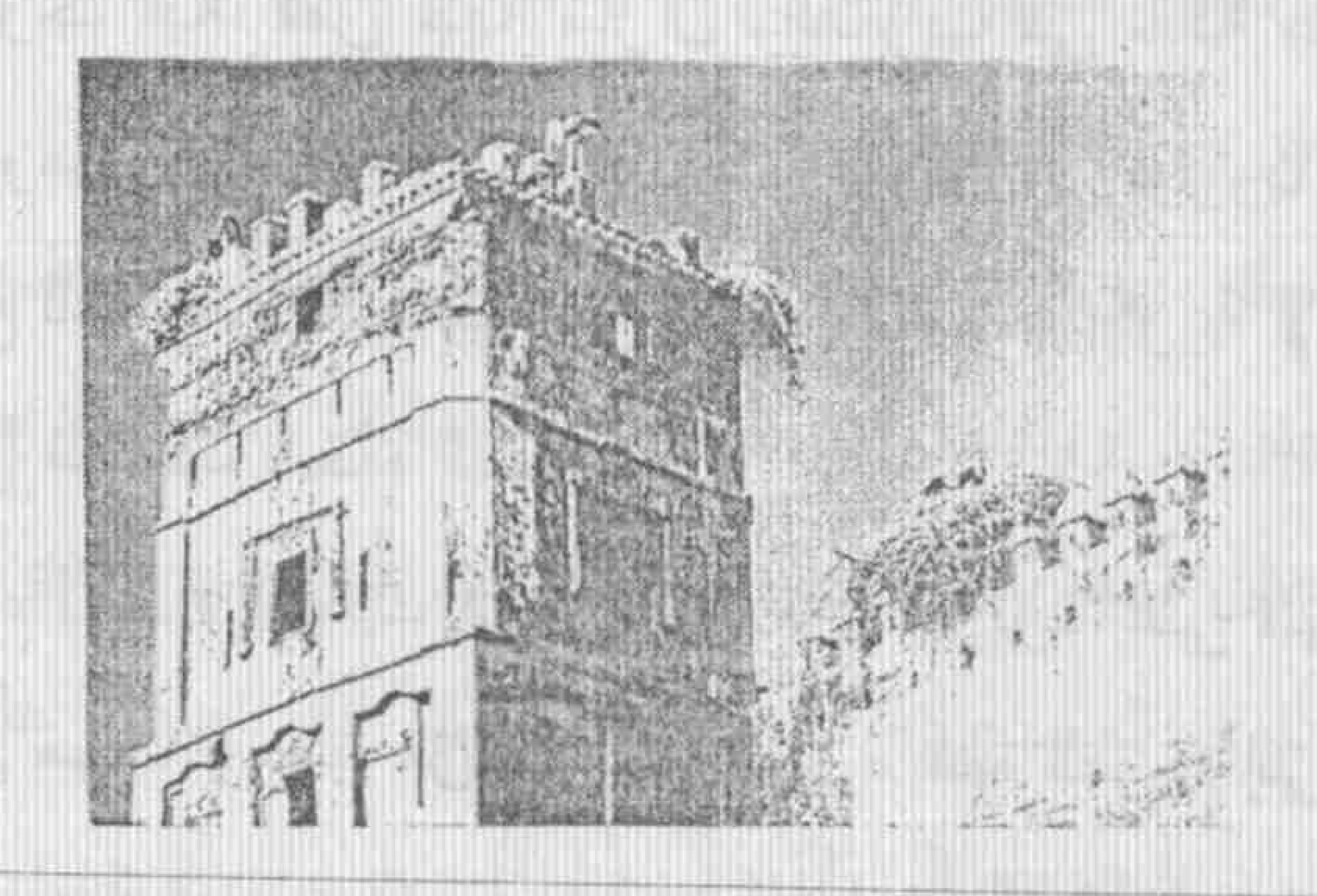
الحـــق يقـــال، إن محاولة استقطاب القائد الزياني بدأت مع الجـــنرال Moinier (62) قبل توقيع معاهدة الحماية، عندما لاحظ قـــتالية المجـــاهدين الزيانيين في المعارك التي دارت رحاها على أبـــواب مكناس (63)، وعلى خط المواصلات بين مكناس والرباط ســـنة 1911، وفي شمال تادلة في معركة وارغوس سنة 1913، ضد قوات الكولونيل Mangin (64).

كـــان الجنرال Moinier إذاً أول من اتصل بالقائد ، وباءت محاولـــته للتفاهم بالفشل، إلا أن ليوطي لم يفقد الأمل نظرا للمأزق الذي كان يوجد فيه، فمن جهة مازال المغرب في حالة غليان ضد المستعمر، ومن جهة أخرى هناك بوادر التوتر في أوروبا والتي لم تعـــد تسمح للحكومة الفرنسية بإرسال إمدادات عسكرية لإطفاء نار المقاومة في مختلف أنحاء المغرب.

ووفاء لخطة التفكيك المستمر (65) العزيزة على قلبه، حاول التأثير على موحا وحمو من جديد، باللجوء هذه المرة، إلى المخزن باعتباره السلطة الشرعية، ومعه تمت معاهدة الحماية. وقد أراد أن يجعل من السلطان، بصفته أمير المؤمنين، الأداة المسخرة لسياسته



معالم قصبة موحى أوحمو التي بناها قبل تعيينه قائدا على زيان



الماكيـــا فيلية، فكان يخرجه إلى المحلات والعساكر المغربية التي كانت تحارب المقاومين تحت إشراف الضباط الفرنسيين، ويظهره للقبائل من بعيد، ليوهمها أنه(أي السلطان) جاء ليؤيد عمل الحماية. فيمـــا يتعلق بزيان أوعز ليوطي إليه بأن يبعث برسالة إلى القواد وباشـــاوات المـــدن، يعـــلن فيها خبر احتلال خنيفرة. ونقتطف من الرسالة هذه الفقرة

... ثم صادفت الوجهة إلى خنيفرة التي كان يظن أن إدراكها أعز من بيض النوق، وطالما حاول أهلها مقابلة الحق بالباطل ، ففعل بهم مثل ما فعل بأشياعهم ... ومعلوم أنهـــم هم الذيـــن فتحوا على أنفسهم أبواب النكال لانـــفرادهم عـــن الجمـــاعة وملازمتهم للبغي و الضلال ، وأعلمناكم لتأخذوا حظـــكم مـــن الفرح بجمع كلمة المسلمين على الصلاح..." (66).

والحقيقة أن ليوطي كان وراء تنظيم حملات إعلامية لتشويه الجهـــاد الـــزياني ومحاربته بدعوى خروجه على المخزن وشق عصـــا طاعة السلطان. وقد نسي أو تناسى أن جهاد زيان لم يكن بدعا ولا نشازا، وإنما كان حلقة في سلسلة الجهاد المغربي منذ أن وطئ النصارى أرض المغرب في الشاوية و وجدة.

كما التجأ ليوطي إلى وساطة بعض الشخصيات المرموقة من النخـــبة الحاكمـــة و العالمة. وهكذا قام بجس نبض القائد الزياني

بواسطة الوزير إدريس البوكيلي (67)، ثم بواسطة باشا مدينة أبي الجعـد، الحـاج إدريس الشرقاوي (68) الذي كانت تربطه علاقة صـداقة مـع الأسـرة الامحزانية (69). فلا يخفى، حسب بعض المصـادر، أن الذي أضاء السبيل أمام السلطان مولاي الحسن في اخـتيار موحـا وحمو قائدا على زيان، هو شيخ زاوية أبي الجعد الحاج بن داوود (70).

ولما أخفق في ذلك، ولم يوقع الزعيم الزياني في فخ الحماية كما أوقع الأكْلاوي وأضرابه، حاول ليوطي زرع بذور الشقاق بينه وبين سيدي علي امهاوش، وإشعال الحرب بينهما بإحياء النزاعات و العصـبيات القديمة، وإثارة النعرات و الخلافات حول من يتزعم منهما قبائل الأطلس (71).

وقد عزا ليوطي هذا الإخفاق إلى الجهل المطبق لأعضاء المخزن الذين كانوا لا يعرفون أي شيء تقريبا عن أعيان الأطلس، وعن تنظيمات القبائل وانشقاقاتها (72).

و الحقيقة أن المقيم العام كان عاجزا عن فهم روح الجهاد الـتي تشبع بها موحا وحمو من العلماء الذين كانوا يترددون على عاصـمته من حين لآخر، أمثال الشيخ أحمد الهيبة بن ماء العينين الذي زاره في خنيفرة سنة 1907، وهو في طريقه إلى فاس (73)، حيـن كانت المدرعة الفرنسية (غاليلية) تمطر الدار البيضاء قنابل

من الميناء، والعلامة عبد الرحمان النتيفي الذي شارك في مقاومة الشـــاوية وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بزيان ليصبح مرجعا في الاســـتفتاء حول الجهاد (74). أضف إلى ذلك تأثير فقهاء الأطلس الذين عقدوا أملهم في زعامة القائد الزياني لاستنهاض القبائل ضد الاحتلال.

إن هذه الروح التي أملتها ضرورة الدفاع عن الدين والنفس والوطن والكرامة الإنسانية ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين ﴾، (البقرة / 190) هي التي حركت موحا وحمو، ومن على شاكلته ، دون أن يكون لديه أي مطمع في سلطان أو إمارة ، كما كان يدور في خلد المقيم العام، سوى تحرير البلاد من ربقة الحكم النصراني الغاشم.

وعندما يئس ليوطي من استمالة القائد، تدخل الجنرال هنريس الذي نادى - منذ وصول فيالقه إلى الجبال- بنهج سياسة بربرية تفصـــل بيـــن سكان هذه الجبال وبين الحضارة العربية الإسلامية، والعودة بهم إلى مرحلة ما قبل الإسلام (75).

لقـــد بعـــث هنريس بوفد أمازيغي من أعيان بني مطير في بداية سنة 1914م، يترأسه القائد إدريسي أورحو (76) الذي كان يحظى بتقدير كبير في وسط القبائل الأطلسية وناحية مكناس، آملا

أن يجـــد، لـــدى الزياني آذانا صاغية، و حول هذا الموضوع كتب أحمد المنصوري يقول

جاء هذا القائد في وفد عظيم ، في هز وبز ، بخيول مطهمة، في السروج المزركشة، يصحب هدايا نفيسة وثمينة ، فتذلف وتملق في الحبل و الغارب ، ولكنه لم يفلح (77).

وكان جواب موحا وحمو

لن أرى مسيحا إلا من خلال فوهة بندقيتي، و إصبعي على زناد الرمي (78).

وهكـــذا رده عـــلى أعقابـــه خائبا وهو حسير. فأخذ هداياه وانســـحب راجعا مع الوفد، لينضم إلى المتآمرين والمتواطئين مع الاســـتعمار، الذين سعوا في تخريب الذمم وتثبيط الهمم. واستطاع موحا وحمو أن يتجاوز هذه النزعة السلبية، وكأنه استحضر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه

فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على الذين من قبلكم فتنا فسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم (79).

أمـــام صلابة موقف زعيم المقاومة وإصراره على مواصلة الجهـــاد، عمـــد الجنرال هنريس إلى زرع بذور الشقاق بين قبائل

زيان لتمزيق وحدتها وتفكيك مقاومتها و القضاء عليها. فقد ظهر له المجتمع الزياني في صورة هـــرم (80)، قمته قبيلة آيت حركـــات (قبيـــلة موحا وحمو) أو ما يسميه ب النبلاء الفيوداليين وقاعدته القبائل الأخرى، أو ما يسميه ب "كتلة العبيد" (la masse servile)، إذألـــم لا يحـــاول إثارة "العبيد" ضد النبلاء" لكسر شموخ القائد المعجب برأيه، وتركيعه مثل باقي كبار القواد، أمام أعتاب الحماية؟

وفد هذا الجنرال إلى بلاد زيان محملا بموروثه الثقافي الذي كـــان يستحضر من خلاله صورة زيان (81). ففي المذكرة (82) التي كتبها غداة احتلال خنيفرة، نلاحظ أن زيان لا تمثل في وعيه إلا صـــورة البـــلد المـــوزع على أساس قسمة ثنائية أسياد/عبيد. وعلى هدي هذه الرؤية، تم النظر إلى قبيلة آيت حركات باعتبارها القبيـــلة التي تحظى بالنفوذ الواسع و السيادة المطلقة، على مجموع زيان، وهو ما يثبته أحد الضباط الفرنسيين بقوله:

كانت قبيلة اَيت حركات ذات مكانة كبيرة في بلاد زيـــان، فهي قبيلة موحا وحمو، وهي كذلك قبيلة الأعيان والنبلاء التي تعطي المحاربين الكبار، والتي تملك أجود الفرسان وأكثر القطعان، وكل من لا يعترف برخائها ولا يعتـــرف بنفوذها، فقد يعرض نفسه للانتقام (83).

وفـــي المقابل تم النظر إلى القبائل الأخرى على أساس أنها تعيش في حمايتها، وما يربط بينهما هوعلاقة أسياد/ عبيد، ومن خطل القول التفكير في أن هناك شعورا "وطنيا" أو دينيا "، يوحد بيـــن القـــبائل الـــزيانية. ومن ثم فالقول بأن المقاومة موحدة تحت زعامة موحا وحمو وهم محض.

وممـــا زاد من اطمئنان الجنرال إلى هذا الوهم الذي توهمه وعـــاش عليه، هو مجيء بعض الدواوير من الزيانيين إلى المركز يطلبون الأمان (84). وكذلك تردد بعض المرضى على مستوصف خنيفرة قصد العلاج (85).

ومن ثم، استنتج هنريس أن عامة الناس، أو ما يسميه ب (la masse servile)، تواقـــة للإنعتاق من قبضة قائدها، وأنها ترغب أن تحـــررها فرنسا من حاكمها الظالم الطاغي، ومن نير نبلاء أيـــت حركات. وهكذا حاول أن يثير من يعتبرهم جماهير العبيد ضـــد الامحزانيين النبلاء بتكرار ثورة الرابع عشر (86) من يوليوز في بلاد زيان- التي اندلعت في باريس سنة 1789.

وطبيعي، فإن ما كان يهدف إليه هنريس أمر آخر غير تقرير الحقيقـــة و إنصــــاف المستضعفين، إذ كان هدفه الأول هو تضخيم الفـــوارق الاجـــتماعية بين ما كان يسميهم العبيد وبين "النبلاء

المــــريعين والمقيـــتين والاستبداديين المثيرين للعصيان (87) من أجل إيجاد ثغرة ينفذ منها لكسر شوكة المقاومة.

ولما لم يفلح في تمزيق وحدة القبيلة عاد إلى مخزونه الثقافي وأخرج ازدواجية أخرى وهي العربي / البربري، في إشارة خفية لإقصـــاء الأمـــازيغ مـــن دائرة الإسلام و العروبة، تمهيدا لتفكيك المنظومة الإسلامية.

لقـــد خـــبرت فرنسا روح الجهاد عند المغاربة وعانت منها الكـــثير، لما كبدتها من خسائر فادحة في الأرواح في مناطق كثيرة مـــثل الصحراء مع الشيخ ماء العينيين، ومراكش مع أحمد الهيبة، وفاس مع محمد الحجامي، والشاوية مع الشيخ البوعزاوي والأحمر منصور ..الخ. وقد وجدت في المقاومة الصخرة التي لا تلين حيث تماســـك وتكاثف المجاهدين لمواجهة الغزو بروح يغمرها الحماس الديـــني ومـــن ثم ففرنسا تعرف أن الإسلام – حتى وإن أحكمت قبضتها على البلاد و العباد – يهددها دوما في وجودها، وأنه سوف ينـــبعث من جديد ليكون قوة رهيبة تحول بينها وبين الثروات التي استحوذت عليها، وبينها وبين الشعب الذي استعبدته. لذلك، نهجت سياســـة تهـــدف إلى حمـــل المغاربـــة على قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء من داخل الفكر الوافد

و بعـــد استكشاف مكونات المجتمع المغربي والإطلاع على تبايـــناته المختـــلفة، اعتـــبرت فرنسا أن سلخ الأمة المغربية عن حضـــارتها الإســـلامية يواتيهـــا في الأمازيغ أكثر مما يواتيها في العرب نظرا لأمور كثيرة منها

1 – أن أصـــول إيمـــازيغن من أوربا (88) وليس من شبه الجزيرة العربية فهم من أصول سلتيه وجرمانية ورومانية (89).

2 – أن إســـلامهم سطحي (90) وأنهم لا يلتزمون بالكتاب والســـنة (91) وفيما يتعلق بالزيانيين يؤكد V.Piquet، أنهم لا يصلون ولا يتوجهون إلى المساجد إلا نادرا (92).

3 – أن عـــاداتهم وتقـــاليدهم مســـتمدة من الثقافة الفرنسية وخاصة فيما يتعلق بتعاملهم مع المرأة.

4 – أن علاقاتهم مع السلطة المركزية تتميز بالقطيعة، فلا وجـــود لأي رابطـــة حقيقيـــة ومتيـــنة بينهم وبين المخزن (93). فالأمـــازيغي شـــديد التمسك باستقلاله لأنه لا يرى في المخزن إلا التســـلط و القهر و الفساد، ولاهم له إلا جمع الأموال لدفع رواتب الجند لقمع القبائل وإنهاكها بالجبايات دون أن يصرف دانقا واحدا من أجل المصلحة العامة (94).

يتضـــح مـــن هذه التنظيرات أن الإنسان الامازيغي أقرب الـــناس إلى استيعاب الحضارة الغربية، ومن ثَمَّ ، وجب دفعه في

هــذا الاتجــاه بتلقيــنه مبادئ الثقافة الفرنسية تمهيدا لإدماجه في الحضارة اللاتينية

وقد تزامنت هذه الحملة، حملة التنصير مع الحملة العسكرية، ففي الوقت الذي كان فيه الجنرال هنريس يقتحم المجال الأمازيغي، كان الرهبان والقسيسون يلقون المحاضرات، ويعقدون الندوات في مديــنة مكــناس، ويبعــثون بالمنشورات إلى قبائل الأطلس (95) تدعوها إلى اعتناق المسيحية. وحول هذا الموضوع يقول صاحب كباء العنبر

أعقل أني سافرت بعد احتلال فاس ومكناس لعاصمة مكناس سنة 1331هـ لبيع الدار التي بقيت لنا بها لقطع العلائق بين الزيانيين المجاهدين و المحتلين ... فوجدت بعض المبشرين الأمريكيين قد فتحوا محلا يلقون بعض تباشيرهم فيــــــها ويوزعون مناشير التبشير (96)

ويضيف نفس المصدر، في موضع آخر أنه احتفظ بعينة من هــذه المنشــورات إلى حيــن عودته، في نفس السنة، إلى خنيفرة ليسلمها لشيخه علامة زيان آنذاك الحاج عبد الرحمان النتيفي الذي أخــذ على التو بتحسيس الرأي العام الزياني على أن الحرب التي تشنها فرنسا على المغرب، إنما هي حرب صليبية جديدة (97).

وهكذا تظافرت جهود العسكر و الكنيسة لهدم عقيدة الإسلام وتذويب الـذات الأمازيغيـة، وطمس معالمها، وفـرض ثقافـة المستعمر ومفاهيمه بحجة أن هؤلاء الأمازيغ يجهلون اللغة العربية ويتشبثون بلهجتهم ويهملون الشعائر الدينية

وقـد غلفت إدارة الحماية هذه الحركة التنصيرية بأعمال خيـرية وإحسـانية كمعالجـة المرضى وتعليم الصبيان ومساعدة الفقـراء. ففـي ميدان الطب تمثيلا لا حصرا، تم إنشاء مستوصف بمدينة خنيفرة (98)، ليشكل نقطة التقاء بين المرضى والمنصرين، وأصـبح – منذ الأشهر الأولى من الإحتلال – مجالا لتلبية أهداف اسـتعمارية مختلفة التقاط المعلومات عن المقاومة، وبث السموم ذات اليمين وذات الشمال لتلغيم القبيلة، يقول ليوطي

إن طبيبا يعادل كتيبة كاملة (99).

ويضيف لوشاتولي

"حيث تجد بشرا تجد الآَما، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب، فهناك مناسبة للتبشير (100).

بدأ المرضى يتوافدون على المستوصف ويعالجون **بالمجان** ودون أن **يطلب منهم الإدلاء بأسمائهم أو سبب جروحهم**" (101).

وبعـــد المعالجـــة يوجه المريض إلى مكتب الاستخبارات المجاور للمستوصف ، ويقدم له الشاي و الحلوى ثم يبدأ الحوار (102).

وغني عن البيان أن الفرنسيين كانوا، في هذه الحوارات يحـــاولون أن يظهروا للزيانيين في ثوب جديد وجذاب ، يتنافى مع العنف الذي مارسوه ضدهم، و الحرب الشرسة التي واجهوهم بها. فيوهمونهم بأنهم جاءوا لتخليصهم من الفقر والمرض والجهل، ومن اســـتبداد قـــائدهم وعشيرته، وهي أساليب يستعملها الاستعمار ضد الشـــعوب المســـتعمرة مـــن أجل تحطيمها، وغزو عقولها بأفكاره وتجريدها من أفكارها وشخصيتها الحضارية (103).

كـــان هدف إدارة الحماية، أساسا من هذه السياسة هو سحب البســـاط مـــن تحـــت قدمي موحا وحمو، ولكن هل تم التقرب من التجمعات الزيانية، وهل تحولت القبائل، أو بعضها على الأقل، إلى جانب سياسة التهدئة ضد المقاومين ؟

اســـتنادا إلى مـــادة وثائقية فرنسية (104) ومغربية (105) نجيـــب بالنفي، ونقول إن الجنرال هنريس – رأس هذه السياسة – أخطأ الحساب كما أخطأه من هم على شاكلته بعده وقبله. فقد أدرك الـــزيانيون الخطـــر، فأبوا إلا الاستمساك بقيمهم وعقيدتهم و الذود عنها حتى آخر رمق. وأما قائدهم، فإن ذلك لم يفل من عزمه ولم يفـــت من عضده، بل زاده إصرارا على مواصلة المقاومة، إلى أن

سقطت أسطورة التدخل السلمي واعترف المحتل بالحقيقة التي حـــاول إخفاءهـــا، وهي خوض الحرب الحقيقية ضد المقاومة التي بادرت بمحاصرة المدينة السليبة

3-خنيفرة تتحول إلى بريزيديو Présidio.

اعــتمد موحا حمو، في حصاره لخنيفرة، على فلسفة جديدة تختلف عما اعتمده من قبل. فقد وعى منذ المعارك الأولى جوانب القوة لدى الجيش الفرنسي من حيث التنظيم والتدريب ،وبما يتوفر عــليه من عتاد حربي كبير وعصري، وبالتالي لا يمكن لمقاومة مــتكونة من مجرد فلاحين لم يتخرجوا من مدارس عسكرية، أن تواجهه في معارك مألوفة وكلاسيكية (106). لذلك لجأ القائد إلى المعـــارك الصـــغيرة، وفتح عدة جبهات مع العدو لتشتيت جهوده، فانطلقت الغارات على مركز خنيفرة وعلى قوافل التموين من خلال مـــا ســـيعرف، فيما بعد بحرب العصابات، التي كانت تعتمد على مجموعات صغيرة من المجاهدين، تضرب بقوة وبسرعة ثم تعود إلى مخابـــئها غانمة منتصرة، ولنتأمل قول أحدهم، وهو يشير إلى الإستراتيجية العسكرية عند المقاومة، يقول

لقد تخلى موحا حمو عن العمليات العسكرية الكبيرة، واكتفى بإنهاك طوابيرنا، وتهديد قوافلنا ، و الهجوم على مؤخرة جيوشنا ، فكانت هذه الحرب ، حرب

العصابات المتوالية ، تكلفنا كثيرا من الخسائر (107).

ويضيف آخر

كانت تلك الفترة فترة الكمائن، فترة مرعبة ومفزعة،
يوم كنا نجد الحراس وقد ذبحوا باكرا من قبل أشباح،
كانوا يتسللون في أواخر الليل إلى الثكنة في الوقت
الذي يثقل فيه النوم الأجفان (108)

وفي موضع آخر يقول

إن العصا بات التي كان موحا وحمو يبعث بها، كانت تنازلنا، والساق على الساق، فيفضل أفرادها أن يموتوا، على أن يسلموا شبرا من الأرض. ورغم يقظتنا القصوى، فكثيرا ما يحدث أن يسقط حراسنا ليلا مطعونين طعنات مهلكة بالخناجر من قبل أشخاص متسللين بصمت، وذوي شجاعة لا يصدقها العقل (109).

ولكـــن هــؤلاء الذيـــن كانوا يدافعون عن دينهم ووطنهم ببطولة خارقة، كان كتاب الاستعمار ومؤرخوه ومفكروه وساسته يصفونهم بالغوغاء وينعتونهم، نهّابا وقطاع الطرق، يقول أحدهم

كانت قواتنا دائما وأبدا في ظروفها الصعبة، تعرقلها عصابات النهاب الجريئين الذين يستغلون طبيعة الأرض، بشكل يثير الإعجاب، كامنين في المنخفضات ليبرزوا فجأة، على أفراسهم

الراكضة بعد ذلك ، وسيوفهم إلى السماء واللعنات تنصب من أفواههم علينا (110).

ومـــا هـــذه النعوت التي يندى لها الجبين من الخسة والنذالة والألفـــاظ البذيئة التي درجوا عـــلى استعمالهـــا إلا لتشويه كفـــاح المجاهدين وإخفاء كل ما يمس بالمجد و البطولات. ومن المؤسف جدا أن المؤرخين المعاصرين لم يهتموا اهتماما يذكر بهذه المقاومة الفـــذة الـــتي ظلت، وجها لوجه، مع العدو مدة خمسة عشر عاما. وحـــتى لما انقشعت سحوب الحماية وجاء الاستقلال، لم يقم أولوا الأمـــر بـــتعريف وقـــائع هذه الحرب الضروس ولم ترفع نصب تذكاريـــة فـــي الأماكن التي خاضت فيها المقاومة معارك ضارية كالهري، وتقا إيشيعان، والبقريث، وألمسيد، وخلفون...إلخ تحفظ، باعـــتزاز، مآثـــر الجهـــاد الوطني، وتتربى على ذكرياتها الأجيال الصـــاعدة. كما لم يكلفوا أنفسهم عناء لإزالة التماثيل الاستعمارية كتلك التي لا زالت إلى يوم الناس هذا بين خنيفرة وقرية الهري

انطـــلق موحـــا وحمـــو في جهاده لا يكل ولا يمل مستهدفا غرضه الوحيد ، وهو تحرير البلاد، يحذوه شعور الجندي المجاهد الحكيـــم الذي لا يعبأ بتشريد ولا يلين لتهديد ، ولا يغتر بزخاريف الدنيا وحطامها، التي وضعتها سلطات الحماية بين يديه ، ولا يركن إلى راحة بال. كتب J.Le Prévost

يقول

كان آلاف من المحاربين يسهرون الليالي فوق التلال المطلة على خنيفرة، لقطع أي اتصال بين المدينة و الخارج ، لقد أصبح الأروام سجناء لغزوهم، وهذا ما كان يرمي إليه الزياني (111).

لا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع المعارك التي خاضتها المقاومـــة مـــا بين احتلال خنيفرة وحادثة لهري وحسبنا الوقوف القصير عند بعض المعارك التي أربكت العدو، وأثرت على جنوده تأثيـــرا نفسيا ،الشيء الذي اضطر قائدهم الكولونيل Laverdure إلى تجاوز أوامر المقيم العام ، وضربها عرض الحائط ، والإقدام على مغامرة لهري لفك الحصار على حاميته.

وهكذا ، ومنذ اليوم الثاني فقط من الاحتلال ، و رغم الجراح المتخـــنة ، انطلقت المقاومة في مناوشة العدو ، وتنصيب الكمائن ومهاجمة قوافل التموين.

<u>قتال يوم الجمعة 13 يونيه 1914.</u>

في هذا اليوم، تناقلت المصادر خبر هجوم عنيف تزعمه بعض أولاد القائد وأبناء أخيه : موحا وعقى، ومعمي ولد الحاج (112). فقـــد حمـــلوا حملة رجل واحد حتى خرقوا صفوف العدو (113)، ولكن كثافة نيران المدفعية خففت من مهاجمتهم وأقنعتهم بالتراجع.

ويبدو أنهم كانوا يهدفون من وراء تلك الهجمات التي حدثت على عدة محاور، إلى الاستيلاء على المعسكر (114).

قتال 30 يونيو 1914.

في هذا اليوم خرج الكولونيل Odry من معسكر خنيفرة بقضه و قضيضـــه ليؤدب هذه الشرذمة من الزيانيين، وكان جيشه مؤلفا من سبع كتائب مشاة، وأربع كوكبات من الفرسان، وأربع بطاريات مدفعية. ويبدو أن هذه القوات الهامة حاولت التأثير على المجاهدين الذين تجمعوا بين جبلي تاغاط وأقلال، وتشتيتهم بعيدا عن المركز، لكن نتيجة هذه العملية، كانت معركة أخرى حامية، كبدت العدو 17 قتيلا من بينهم ضابط من رتبة قبطان و77 جريحا (115).

ولقـــد سبق أن خفت الاشتباكات في النصف الثاني من شهر يونيه نظرا لموسم الحصاد ولم تشر المصادر(116) إلا إلى بعض المناوشات الطفيفة بدون أهمية، لكن ما إن انتهى جمع المحصولات الزراعية حتى عادت الاشتباكات إلى ما كانت عليه من قبل، بل أخذت طابعا أكثر حدة و ضراوة.

قتال 7 يوليوز 1914.

وقعـــت هـــذه المعـــركة في منعرجات تكْط ذي التضاريس الوعـــرة. فقـــد توجه القائد الزياني على رأس المجاهدين إلى هذا المكـــان الـــذي يـــبعد عن خنيفرة بحوالي عشرين كيلومترا شمال

خنيفرة لاعتراض سبيل الجيش الفرنسي العائد إلى مكناس. وترك قوات العدو تتوغل في الغابة، ثم هاجمها هجوما عنيفا. ومن خلال الوصـــف الذي قدمه أحد الضباط (118) المشاركين في المعركة، فـــإن موحـــا وحمو اعتمد تكتيكا يهدف إلى عرقلة تدخل المدفعية، وذلك بمضاعفة الهجمات المتقاربة وتكثيفها بشكل لم يسمح للعدو باستعمال السلاح الثقيل فانقلبت المعركة جسما لجسم، وهذا ما كان يـــريد أن يصـــل إليه القائد، ويستطرد الضابط أن الجنرال هنريس الذي كان يتابع المعركة بواسطة المنظار، اكتشف أن القائد الزياني كان يتوفر، هو أيضا على قيادة أركان تتكون من بعض أبنائه ورؤســـاء الجماعـــات "، وعـــلى احتياطيين من المحاربين في أتم الاستعداد للتدخل، (119). وأسفر القتال على 11 قتيلا و3 جرحى من الجانب الفرنسي (120).

وبعـــد أقـــل من أسبوع عادت حامية خنيفرة لتصد هجمات أخـــرى نفذهـــا المجـــاهدون خصوصا أيام 6 و 11 و13 يوليوز. وتذكـــر الـــرواية الفرنســـية أنها (أي الحامية) استطاعت أن ترد المغاربة على أعقابهم بفضل تفوقها عددا وتسليحا (121).

قتال 18 يوليوز 1914

وفـــي 18 يوليوز، حاول المقاومون من زيان واشقيرن قطع الطريق على سرية فرنسية بين سيدي عمرو وبين خنيفرة. وتناقلت

الـــتقارير (122) أن القـــتال اســـتمر طيلة الصباح، و أشارت إلى جســـارة المغاربة الذين كانوا يتهافتون على الموت تهافت الفراش على الضوء في سبيل الشهادة ، كما أشارت إلى مقتل خمسة جنود من العدو وجرح 11.

وبعـــد أســـبوع فقـــط، أي في 25 يوليوز، عاود المقاومون هجومهـــم ليتعرض مركز خنيفرة لغارة عنيفة. ويبدو أن الزيانيين كـــانوا يهدفون من وراء كل هجوم إلى إلحاق أكبر الخسائر بالعدو لإرباكه وإرغامه على مغادرة المدينة. وقد تأكد من تقارير الضباط أن ساكنة الثكنة، الذين ظلوا يتجاهلون حقيقة مقاومة زيان، أصبحوا مضـــطرين للاعـــتراف بأنهم محاصرون، وأنهم يواجهون خصما عنيدا لا يمكن التكهن بنتائج الصراع ضده. وفي هذا الصدد، سجل لنا القبطان سعيد كنون، رغماً على أنفه، أمجاد هذه المقاومة وبطولة رجالها قائلا

في شهر يونيه وشهر يوليوز بلغت خسائرنا عدة مئات من القتلى والجرحى ، فيما بدأ التعب والضجر يدب في صفوف وحداتنا من جراء تلقيها ضربات الزيانيين في الثكنة نفسها، وفي معرض الفرق، ودون أن تتح لها الفرصة لمهاجمة العدو لكي تأخذ ثأرها" (123)

ويضيف الملازم J.Pichon:

كان كل خروج على مسافة من الثكنة، يكلفنا عددا من القتلى والجرحى"(124)

أما ليوطي فقد أبرق إلى حكومته بأن

"**حامية خنيفرة ، يجب أن ينظر إليها على أنها محاصرة (125)**

وهكذا يمكن القول

1 – إن الانتصارات الصغيرة التي تحققت في غضون شهر واحـــد، أذكـــت لدى المقاومين روح الجهاد في سبيل الله، وألهبت حماســـهم، وقـــوت روحهم وأنفاسهم، فعقدوا عزمهم على مواصلة الحرب ضد عدوهم

2 – إنه بعد شهرين (يونيو –يوليوز) من غزو خنيفرة تبين للفرنســـيين أنهم محاصرون بخنادقهم، وأنهم أمام خصم عنيد يملأه الإيمان بعدالة قضيته، ويدفعه حماس الجهاد للدفاع عن دينه ووطنه، كما تبين لهم أن هذا الخصم يعرف كيف يستفيد من معرفة الميدان لمواجهة قوات تفوقه عدة وعددا، وكيف يفرض عليها المعركة في الوقت الذي يراه مناسبا

ومن الصدفة الحسنة التي ساعدتهم على تضييق الخناق على أعدائهـــم، إشهار الحرب على فرنسا من قبل ألمانيا، بعد إشهارها عـــلى روسيا، وهي الحرب العالمية الأولى التي استمرت حتى 11 نونبر 1918.

لقد نزل خبر هذه الحرب بردا وسلاما على الزيانيين، فأذكت حماســهم وقــوت روحهم وبعثت الأمل في نفوسهم، واعتقدوا، بل تيقــنوا أن الساعة الأخيرة للوجود الفرنسي في المغرب حانت، أو بــاتت وشــيكة، يقــول ســعيد كنون وهو ينطلق من هذه النزعة الاستعلائية:

ما إن أعلنت الحرب التي وصل خبرها إلى زيان في نفس الوقت الذي وصلنا فيه ، حتى أخذ العدو يشدد الحصار علينا ويستعد لمنعنا من الفرار. (126).

وشاع الخبر في الجبال بسرعة كبيرة، وتأجج حماس الجهاد، ليعــم القــبائل في الجهات الوسطى من الأطلس كزيان و الجنوب كإشــقيرن، والجــنوب الغربي كآيت إسحاق، و الجنوب الشرقي كــآيت مگيــلد. وقام زعماء المقاومة كسيدي علي أمهاوش وموحا وســعيد الو رَّاوي، وسيدي سعيد أحنصال، يلهبون الشعور الديني لحــث القــبائل عــلى حمــل السلاح، كما قاموا بإرسال وفود إلى الجنوب المغربي، في تافيلالت ودادس في محاولة لتوحيد المقاومة الوطــنية(127). أمــا موحــا وحمو فقد عمد إلى تنظيم حملات اســتطلاعية إلى الطرق الرابطة بين مكناس وخنيفرة وبين تادلة وخنيفرة التي تسلكها قوافل التموين وذلك بغية التعرف على طاقات العدو العسكرية.

ثم جاء قرار الحكومة الفرنسية القاضي بتقليص أعداد الجيش الفرنسي، وتلقى المقيم العام الأمر بإرسال 37 كتيبة من مجموع 64 كتيبة التي يتكون منها جيش الاحتلال بالمغرب، لتعزيز قدرات الدفاع الوطني الفرنسي ضد ألمانيا. كما تلقى الأمر بالتخلي عن جميع المراكز المتقدمة وحصر نفوذ فرنسا في الشواطئ الرئيسية (128)، الأمر الذي بعث الأمل في نفوس المجاهدين وجعلهم يعتقدون أن الفرنسيين سينسحبون. فقرروا مواصلة القتال وتكثيف الهجمات أكثر فأكثر لإرغام المحتل على الجلاء. وكان سيدي علي أمهاوش يخطب فيهم

اصبروا، فبعد قليل لن تجدوا أحدا يحاربكم (129).

وتذكر المصادر الفرنسية أن المعارك التي دارت على أبواب خنيفرة – بعد أحداث أوروبا – تميزت بعنف شديد وشراسة كبيرة (130). فعلى سبيل المثال، لا الحصر، تعرضت الفيالق التي غادرت خنيفرة، يوم 4 غشت 1914، في اتجاه الساحل لركوب البحر، إلى هجمات شديدة. فما كادت هذه الوحدات تخرج من المعسكر حتى فاجأها الزيانيون بإطلاق النار عليها . وقد ظلوا يناوشونها طيلة ذلك النهار، ولم يفارقوها حتى توارت عن بلاد زيان، ولندع J.Le Prévost يعطي لنا بعض الإيضاحات

صحيح أن يقال إن الفيالق غادرت معسكر خنيفرة، ولكن بأي

ثمن ؟ فما كاد جنودنا يتجاوزون الأسلاك الشائكة حتى بـــدأ الاحتفاء بهم. فقد نزل المهاجمون من التلال المجاورة على غرة، كأنهم شياطين، وفرغوا بنادقهم عليهم واختفوا بأقصى سرعـة. ومن جهة أخرى كانت ألآف البنادق الكامنة وراء الأشجـــار والصخور تمطرهم برصاصها بغضب شديد ولولا المدفـعية لما أمكن أن نفتح ممرا لهذه القوات (131).

ويضيف ضابط آخر

تعرضت الوحدات التي غادرت خنيفرة ، إلى هجمات غاضبة منذ خروجها من المدينة، ورغم الخسائر الجسيمة في الأرواح التي منيت بها ، فإنها وصلت مع ذلك إلى الميناء في طريقها إلى فرنسا .(132).

وبـتأثير من الأحداث الأوربية وصلت حركة المقاومة لدى القبائل الأطلسية إلى حد بعيد، فهذا سيدي علي أمها وش ينزل من جـبال أَيـت سخمان إلى قرية لقباب ليتولى بنفسه قيادة المعارك، ويسهم في حصار خنيفرة من جهة الجنوب. أما موحا وحمو الذي كان لا يشك قيد أنملة في الانسحاب الفرنسي عن المغرب، فقد ظل يحث الزيانيين على مضاعفة الهجمات ونصب الكمائن، واعتراض سـبيل القوافل ومواصلة تضييق الخناق على محتلي المدينة، حتى يتم الجلاء عنها بأقصى سرعة.

كـــانت نـــتيجة هذا الهيجان – بعد أقل من نصف شهر على انـــدلاع الاشتباكات في أوربا – أن عرفت المعارك ضراوة كبيرة حيث تبين للمحتلين الذين وجدوا أنفسهم معرضين ليل نهار لغارات المقاومـــة، أن الدفاع عن المركز وتموينه يتطلب إمدادات مستمرة. علق القبطان سعيد كُنون قائلا

" كانت تحدث كل ليلة معركة وكل ليلة محاولة ضد تحصيناتنا (133).

وكـــان على قائد الحامية الكولونيل Laverdure أن يواجه مقاتلي زيان ومن انضم إليهم من المجاهدين من قبائل الأطلس في معارك أخرى نذكر منها على الخصوص

قتال 5 غشت.

فـــي هـــذا اليـــوم قاد موحا وحمو هجوما على المركز، ودارت معـــركة طاحنة دامت من الخامسة صباحا إلى الرابعة بعد الزوال (134). وتلته هجومات أيام السادس عشر، و السابع عشر، وتناقـــلت الـــروايات الفرنســـية أن المعارك كانت تدور بقرب من أسوار خنيفرة (135)

قتال 19 غشت .

في هذا اليوم خرج الكولونيل Garnier Duplessis، قائد حامية تادلة و المسؤول عن تموين مركز خنيفرة، على رأس قوات

هامـــة معبأة تعبئة قتالية تامة لتنفيذ مهمة بين سيدي لامين وكهف النســور (كــاف النسور). ويبدو أن المقاومين علموا بخروج هذه القوات، لذلك أخذوا مواقعهم على مرتفعات جبل معجبات، تاركين القوات الفرنسية تتوغل في الشعاب، ولما صارت على مقربة منهم انقضــوا عليها وهاجموها هجوما عنيفا حيث دارت معركة شرسة تواجهت فيها القوات الغازية ومجاهدو زيان . ومن خلال الوصف الذي قدمه الضابط J.Pichon، فإن المعركة استمرت طيلة النهار، لكنه لم يذكر الخسائر التي مني بها الجانبان (136) وفي نفس اليوم (19 غشــت) كانت مجموعة أخرى من المجاهدين تترقب وصول قـــوات الكولونيل Claudel من مكناس، فتحصنوا في منعرجات تكُــط ، ولمـــا وصل إليهم جيش العدو هاجموه وشب قتال عنيف تحول وجها لوجه(137)

معركة 20 غشت

رغـــم ضــــراوة المعارك المذكورة سابقا فإن المعركة الهامة الـــتي وقعت في هذا الشهر هي معركة 20 غشت. ففي هذا اليوم تحـــرك، فـــي اتجاه الجنوب الغربي لمدينة خنيفرة، عدة آلاف من المقـــاومين حسب تقديرات الجنرال كُيوم (138)، وتحصنوا وراء الصخور في انتظار قافلة التموين الآتية من تادلة، و التي تحرسها فرقة متحركة بقيادة الكولونيل G.Duplessis.

واســتعدادا لرد هجوم محتمل من المقاومة، أصدر الجنرال هنريس أوامره للكولونيل Laverdure من أجل احتلال المرتفعات المطلة على خنيفرة، لتوفير الحماية وبخاصة في المكان المسمــى تــازروت موخــبو (الحجرة المثقوبة) ذي التضاريس الوعرة، والتي كثيرا ما يتحصن فيها المقاومون.

وقــد أنيط بهذه المهمة الكومندار Durmelat الذي أسرى بجيش يتكون من أربع سرايا من الرماة، وقطعــة مدفعيــة 65 مم (جبلية) ومفرزة من السبايس. ودبر خطته تدبيرا متقنا، حيث نصب مدافعــه على جبل بوموسى، وسد الطرق و المنعرجات التي يتسلل منها الزيانيون (139).

أمــا المجاهدون، فكانت خطتهم أن ترجلوا و تركوا خيولهم مختفية في الشعاب ، وهاجموا المدافع هجوما شاملا، وعلى إثرها نشــب قــتال عنيف انتهى بتعطيل المدفعية، وتدحرج الجيش نحو قافــلة التموين. ولم يتمكن Durmelat من فك الحصار عليه إلا بــتدخل قوات أخرى جاءت من خنيفرة (3 سرايا و الكوم ومدفعية 75 مم)، وانسحب المغاربة تحت ضغط نيران المدفعية، ولكنهم لم يغادروا ميدان المعركة (140).

فــي هــذه الأثناء كانت قافلة التموين تتقدم بخطى ثابتة ،بل نجحــت مــن عبور الحجرة المثقوبة بلا حادث، ولكن ما أن

توغلت في إحدى شعاب جبل بو موسى حتى انقض عليها الزيانيون من جميع الجهات، ودارت معركة طاحنة، خيم عليها الرعب وتحولت إلى مبارزة وجها لوجه.

نتائج المعركة

قال الجنرال كُيوم

كانت معركة يوم 20 غشت ضد خصم عنيد وقد دامت من السادسة صباحا إلى الخامسة و النصف مساء، تكبد فيها العدو خسائر فادحة ، بينما كانت خسائر قوات Durmelat طفيفة بسبب موضعها على المرتفعات غير أن خسائر الفرقة المتحركة التي كان يقودها الكولونيل G.Duplessis كانت أفدح، إذ خسرت 30 قتيلا من بينهم ضابط واحد و64 جريحا من بينهم 8 ضباط (141).

وقال J.Pichon:

إن اشتباك 20 غشت كلفنا، وا حسرتاه أربعين قتيلا من بينهم ضابط واحد و50 جريحا من بينهم ضابطان (142).

أما القبطان سعيد كُنون الذي كان شاهد عيان، وربما شارك في المعركة بصفته أحد ضباط حامية خنيفرة، شأنه شأن الملازم J.Pichon، فقد ضرب صفحا عن خسائر الفرنسيين، في حين

أظهر خسائر الزيانيين رغبة في نشر روح الانهزامية في صفوص المجاهدين، حيث قال

خسر العدو اكثر من 200 قتيل من بينهم رجال مشهورون وأعيان تركوا على أرض المعركة ... ومئات من الجرحى. كما خسر عددا كبيرا من الخيول، فضلا عن الأسلحة التي استولينا عليها أثناء القتال (143)

وإذا كنا لا نستطيع أن نتبين مدى صدق هؤلاء الضباط نظرا لعدم وجود أوصاف محايدة، ولانعدام وصف مغربي لقتال 20 غشت، فبإمكاننا أن نشك في التقديرات التي أوردها الجنرال ڴيوم، كما يحق لنا أن نرتاب من القبطان ڴنون الذي أحصى عدد القتلى والجرحى في صفوف المغاربة.

إن عدة آلاف الزيانيين المشاركين في المعركة الذين ذكرهم الجنرال ڴيوم عددٍ مبالغ فيه. فقد أوردت المصادر الفرنسية نفسها – كما سنرى في القسم الثاني من الدراسة – أن عدد المقاومين كان غير قار، فهو يزيد عندما يتوافد متطوعو القبائل، وخاصة بعد مواسم الحصاد و الحرث، وينقص عندما يكون الناس منشغلين بجمع محصولا تهم الزراعية. والحالة هذه، أن المعركة تزامنت مع فترة جني محصولات الجبال المازوزية التي يشرع في قطف ثمارها أواخر فصل الصيف – هذا من جهة، ومن جهة أخرى

يظهـــر أن مواجهـــــة الزيانيين لقوات الاحتلال، حسب المصادر المذكــورة دائما، يتم على شكل مجموعات لا تتعدى الواحدة منها ثلاثيـــن مقاتلا، وحتى إن فرضنا جدلا أن العدد الذي قدمه الجنرال كان صحيحا، فإن هذا العدد كان موزعا على عدة جبهات قتالية لا يوجد بينها تنسيق كبير ولا تخضع لقيادة واحدة

ومهما يكن ، فإن معركة 20 غشت زادت من حصار مركز خـــنيفرة ومن عزلته عن العالم الخارجي، وأصبح من العسير جدا إمـــداده بمـــا يحـــتاج إليه من تموين وذخيرة لضمان صموده أمام ضربات المقاومة المتتالية.

وفي الخامس والعشرين من غشت، عاود المغاربة هجومهم عـــلى المركـــز، وعلى إثر هذه الهجومات غير المنقطعة،صدرت تعـــليمات من الجنرال هنريس تذكر قائد حامية خنيفرة بأن الوجود الفرنسي في المغرب الأوسط كله متوقف على صموده في عاصمة زيـــان، وبـــناء عـــليه وجب اتخاذ جميع تدابير القتـــال في وجه المقاومة (144)

قتال 22 غشت

وفـــي 22 غشت كان على جيش الكولونيل G.Duplessis، وهـــو فـــي طريق عودته إلى تادلة ،أن يواجه من جديد المقاومين الذين كانوا يترقبونه في المكان المعلوم. وجرت مرة أخرى معركة

ضـــارية بين الجانبين حينما كان G.Duplessis يحاول اجتياز الحجــرة المثقوبة "، ولم يتمكن من فتح الطريق واختراق صفوف المجاهدين إلاعندما جاءته تعزيزات من خنيفرة (145).

وإذا كـــانت هذه المعارك قد سجلت نجاحا كبيرا في الحصار المضروب على خنيفرة، فإن ما زاد من التعبئة والقتالية، في نهاية صيف 1914، هو ما راج من أخبار (146) مفادها أن الإمبراطور العــثماني عقـــد إتصالا مع السلطان عبد العزيز (1894-1907) واقـــترح عليه إمداده بالأسلحة و الذخيرة لرد النازلين ببلاده. كما تحدثـــت نفس الأخبار أن موحا وحمو تلقى رسائل تفيد أن السلطان يستعد للعودة إلى المغرب لقيادة المقاومة(147). ولا غرابة في ذلك لأن الفرنســـيين كانوا يستفيدون من شبكة استعلامات فعالة تتشكل مـــن مخبرين في القبائل، يساعدهم أعيان في عملية الاستخبار مثل عمر وأخيه ابني أخت موحا وحمو اللذين التحقا بالمعسكر الفرنسي كما سيأتي، أو بوعزة بن موحا وحمو الذي سقط فيما بعد، على أم رأسه وأصبح بحشمه وخدمه أمام مركز خنيفرة.

وعـــلى إثر ذلك قام الزعيم الزياني صارخا في قبائله يحثها لتســـتمر على ما كانت عليه من التضييق على المركز و مواصلة القـــتال، وعقد مع سكان القائل اجتماعات ومؤتمرات، وتجول في

الأسـواق والمداشـــر لشـرح مضـمون رسائل السلطان عبـد العزيــز (148).

<u>نتائج الحصار</u>

1-إن هــذه المعارك الخطيرة جعلت الجيش الفرنسي يتخلى عــن الثكنة العسكرية التي أسسها خارج المدينة لقطع الطريق على المنــتجعين إلى الأزغـــار ، فخـــرب الخنادق و المنشآت الدفاعية واكتفى بتحصين مواقعه، وإيواء جنوده داخل المدينة، احترازا من هجمـــات الزيانيين (149). ومع ذلك، استمر المغاربة في مناوشة القـــوات الفرنسية سواء خلال الليل أو في النهار، وفرضوا عليها عـــزلة تامـــة حيـــث لـــم تجرؤ لخوض أي معركة أو هجوم على تجمعات المقاومين الذين كانوا – مع ذلك – في متناول المدفعية أو حـــتى القيام باستطلاع، بعيدا عن المعسكر. وإذا كان الحق هو ما شهد به العدو، فلنستمع إلى ما قاله الضابط كُنون حول الحصار

أصبح إطلاق النار على المركز عملا اعتياديا وخاصة على مواقع حراسنا الذين كانوا مضطرين لخوض القتال كلما قاموا بدورية أو التحقوا بنقاط الحراسة، في حين كان بوعزة بن موحا وحمو الذي سيصبح فيما بعد بطلا في صفوفنا ، يضطلع بدور منع أي اتصال بين المخبرين الزيانيين ، وبين مكتبنا في الاستعلامات.

وهكذا أصبح من المستحيل القيام بأي خروج على بعد خمسمائة متر من المركز، دون أخذ حيطة لا نهائية، ودون تعيين عدة وحدات مجهزة بالمدافع والرشاشات لتأمين عودة فرقة الاستطلاع ، ورغم ذلك كلفنا خروج ذات يوم 4 قتلى "(150).

ويضيف ضابط آخر:

" لقد سقط الغزاة في فخ الحصار، وأصبحوا سجناء غزوهم. فهاهم الجنود يقضون أيامهم هنا (أي في خنيفرة) في التقاط أمراض التيفوس و الحمى الصفراء و الإسهال، و الحال أن المستوصف يشكو من نقص كبير في الأدوية بل من ندرتها (151).

2- غير أن الذي كان يشغل بال ساسة الحماية أكثر هو مسألة تموين المركز. فهم يعرفون أن المؤن التي تأتي من تادلة عن طريق أبي الجعد، لا تصل إلى خنيفرة إلا بعد خوض معارك طاحنة ، تسفر في غالب الأحيان عن قتلى وجرحى وضياع السلع كما جرى يوم 20 غشت السالف الذكر. ولذلك ارتأوا أن تكون وجهتهم هذه المرة من الشمال، أي من معسكر مكناس عبر أمريرت. فجهزوا جيشا عظيما من القبائل الخاضعة (بني مطير، بني مكليد، زمور...)، ولكن ما أن تصل هذه القوات إلى منعرجات فم تكطحتى يتلقاها الزيانيون بكل حفاوة. مثال على ذلك، تعرضت،

يــوم 19 غشـــت قـــوات Claudel لهجوم شامل نفذته قبائل ايت ســـكْوكْو (زيـــان الشـــمال) على طول ممر تكْط (152)، والمثال الـــثاني أورده أحمد المنصوري (153) الذي ذكر أن قافلة التموين لقيت مقاومة شديدة على مشارف مدينة خنيفرة في المكان المعروف بالـــبرج على نهر أم الربيع، حيث ضرب المقاومون حصارا على هذه القافلة، ونشب قتال عنيف أدى إلى سقوط السلع في النهر.

ويضيف نفس المصدر

لا تكاد تصل تلك القوافل لأطراف التراب الزياني حتى تدق أجراس غيبية سريعة بين القبائل، فيتهيأ للقياها بكل حفاوة ... فكانوا يفرحون بسماع قدوم القوافل لما فيها من النوافل، فما شئت من الذخيرة وزاد، وما شئت من مكاحل وقرطوش وعتاد. وتلك حظوظ وسعود من قافلة تسير و أخرى تعود (154).

نـــتيجة لذلـــك وقـــع نقص كبير في المواد الغذائية وخاصة اللحوم و الخضر الطازجة. فقد أورد الضابط J. Le Prévost أن قافلة يوم 20 غشت زودت المركز بعدد من الأبقار، ولكن لم يكن من الممكن إرعاؤها خارج أسوار المدينة، نظرا لقصف المقاومة، فبـــنيت لهـــا زريبة في مكان يستعمل لمعالجة الأقذار، وبقيت تلك الحيوانـــات التعسة مقيدة وسجينة لا تتحرك حتى أصبحت نحيفة.

وقـــد نجـــت مـــنها بعض الرؤوس، غير أن لحومها كانت يابسة وعسيرة الهضم، وماتت الرؤوس الأخرى في برازها (155).

وهكذا تدهورت الأحوال الصحية في الثكنة وبدأت الأمراض تفـــتك بســـاكنتها، وسجلت حالات كثيرة من فرار الجنود وخاصة المجندين المغاربة الذين كانوا يلتحقون بالمقاومة بعدتهم وذخيرتهم. وقد لخص سعيد كُنون هذه الحالة في قوله

كان جنود يفرون كل صباح بأسلحتهم بعد قتل ضباطهم الفرنسيين أو الجزائريين. وهكذا فقدت سرية ، في غضون أشهر، نصف عددها (156).

3-أخـــذ النفوذ الفرنسي يتلاشى في القبائل الخاضعة لإدارة الحمايـــة وخاصـــة فـــي قبائل الهضبة الوسطى، وبدأ موحا وحمو يستقبل متطوعين من قبائل زمور وكُروان وزعير وبني مطير... دخلوا كلهم تحت راية المقاومة، وتوسعت رقعة الجهاد (157).

جملة القول إن احتلال خنيفرة لم يفض إلى غزو بلاد زيان وكسر شوكة المقاومة المسلحة، رغم ما بذله الفرنسيون من جهود مضـــنية لاســـتقطاب قائدها، وتلغيم القبيلة بوسائل مختلفة، كانت تهـــدف أساسا إلى تفكيك المكونات الإسلامية، بل على العكس من ذلك، أصبحوا – بعدما ظلوا يتجاهلون حقيقة موقف سكان زيان – مضـــطرين بالتصـــريح بالواقع والاعتراف بأنهم محاصرون في

ثكنتهم، وان مقاتلي زيان المدعومين بقبائل أخرى من خارج زيان، عازمون على مواصلة الحصار والدفاع عن بلادهم

إن هـذه الحـركة الجهاديـة التي بدأت تعم قبائل الأطلس والهضـبة الوسـطى (زمور، زعير، كروان بني مطير) هي التي أقلقت قائد حامية خنيفرة الكولونيل Laverdure، وجعلته يستنتج أن فـك الحصـار على جنوده يتطلب شن غارة على مخيم لهري واختطاف القائد موحا وحمو.

هوامش القسم الأول :

1- يقول أحد الضباط الفرنسيين " في سنة 1908، عندما كانت قواتنا تجوب الشاوية لتهدئتها أعلن موحا وحمو الجهاد ضدنا " انظر

F.Berger , Moha ou Hamou le zaiani , un Royaume berbère contemporain au Maroc , ed. de l'atlas, 1929, p.85.

2- P.Guillen les investissements au Maroc de 1912 à 1939 » in la position internationale de la France , cité par D.Bivet dans Lyautey et l'institution du Protectorat au Maroc , l'Harmatan , 1987, t3 p 82

3- A.Bernard , le Maroc , Alcan , Paris 1932, p .380.

4- أحمد المنصوري، "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر "،مخطوطة الخزانة العامـــة ، رقم 946 تحقيق محمد بن لحسن. (تحت الطبع) ج1 ص 18.

5- Général Lyautey , Lyautey l'africain (1912-1925) , textes présentés par P. Lyautey, Plon 1953 , t2 , p 181.

6-Le Réverend , un Lyautey inconnu , ed . Perrin , 1976 p. 360.

7- انظر المصدر السابق ، ص 367.

8- voir, Rapport n° 142 , General Henrys à Lyautey, Meknés le 1er Mai 1914 , A.M.G. 525.

9- A. Lyautey ,vers le Maroc lettres du sud oranais (1903 –1906) Paris 1937 , P 165.

10- Lyautey à Guerre , Rabat 2 août 1913 , A.M.G. 296.

11- Lyautey l'africain (1912- 1915) , op.cit. p 186.

12- اعـــتمدنا فـــي ســـرد الأحداث على التقارير الرسمية العامة وكذا بيانات الضـــباط المشاركين في المعارك، اعتقادا منا أن ما يبعث به المقيم العام إلى حكومته لا يعكس إلا الحقيقة.

13- Télégramme n° 1802, Henrys à Lyautey, le 8 juin 1914, A.M.G. 904.

14- نفسه.

15- J.Pichon , El Herri , éd. Charles Lavauzelle, Paris 1936, p .14.

16- J.Le Prévost, jusqu'à l'usure des sabres, manuscrit, p 120.

17- Lyautey à A.Lazard , Rabat 22 juin 1914, dans A.le Révérend... p , 274.

18- M. Le Glay, les sentiers de la guere et de l'amour, récits Marocains ؛ 1930, p.120.

19- J.D'esme, le Maroc que nous avons fait, Hachette 1952, p , 102.

20- Lyautey à A.Lazard , op , cit , p .274.

21- Lyautey l'africain , op , cit , p 249.

22- D.Rivet , « éthnographie et conquête du Moyen Atlas. 1912 – 1931 » Sciences de L'homme et conquête coloniale, p .168.

23- J.Le Prévost , op , cit , p ,129.

24- نفسه ، ص 21.

25- نفسه ص، 129.

26- نفسه.

27- Lyautey l'africain , op , cit , p .204

28- أورده جان بيشون ، المصدر السابق، ص، 17.

29- نفسه ، ص، 17-18.

30- J. Le Prévost , op,cit ,p .120

31- نفسه.

32- نفسه ، ص، 123.

33- أحمد المنصوري ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 94.

34- J.Pichon op ,cit, p 61.

35- J.le Prévost op.cit .p.124.

36- M. le Glay , les sentiers ...op , cit , p 146.

37- Général Guillaume, les Berbères marocains et la pacification de l'Atlas central, Julliard,1947 , p 157.

38 – نفسه.

39- J.le Prévost , op , cit p .125.

40 – مصدر سابق ، ج 2 ، ص 27-28.

41- D.Rivet , Lyautey et L'linstitution t1, pp. 87-88.

42- نفسه .

43- J.Le Prévost , op , cit , p 125.

44- أحد المنصوري ، ج 2 ، ص 26.

45- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب ، مطبعة المدارس، 1985، ج1، ص 363.

46- محمد بن جعفر الكتاني، نصيحة أهل الإسلام ، مكتبة بدر، الرباط 1989، ص 89.

47- أحمد المنصوري ...، ج 2، ص 27-28.

48- نفســه.

49- نفســه

50- Le Marquis de Segonzac , voyage au Maroc (1899 –1901), Armand Colin , 1903 , p 55.

51 - نفسه.

52- S.Guennoun, la montagne bérbère, éd. Omnia, Rabat 1934 ,p33.

53- نفسه.

54- أحمد المنصوري ...، ج 2، ص69.

55- نفسه.

56- Lyautey à A. de Mun, Marrakech, 10 Octobre 1913, in choix de lettres (1882-1919), A. colin, p 207.

57- محمــد خيــر فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (1912-1939)، سنة 1972 ، ص، 95.

58 - أحمد المنصوري مصدر سابق ج1، ص 74.

59- Lettre n°2607 S.G.C. Secrétariat du gouvernement à chef du Bureau politique , Rabat 30 septembre 1913. Carton n° 3108 II2

60- حالت هزيمة أحمد الهيبة دون تجميع قوات المقاومة المغربية في عمل موحد ضد الفرنسيين ، أنظر محمد خير فارس ، م.س .ص95.

61- Télègramme n° B.p2, Lyautey à G.Duplessis, Rabat 24 octobre 1913, A.M.G. bloc zaian , et aussi note de la Résidence générale sur la situation politique dans la region de Oued zem , 21 mars1913.

62 – أحمد المنصوري ....، ج 2، ص69.

63- نفسه

64- نفسه.

65- فـــي رسالة إلى حاكم الجزائر كتب ليوطي يقول " إن ما أطلبه هو أن تدعونـــي أواصل التسلل و التسرب التدريجي و التفكيك المستمر الذي مارسته بنجاح إلى اليوم أنظر Lyautey , vers le Maroc , op , cit, p 165

66 - أحمد المنصوري ج 2، ص، 93.

67- Lettre n°26 07, S.G.C.Secritariat général du gouvernement cherifien à chef du bureau pollitique , Rabat 30 septembre 1913 , carton N° 3108 II 2

68- Télègramme n°Bp2 , op ,cit.

69- نفسه.

70- F. Berger , op .cit.p 32 , voir aussi J.Le Prévost , p 13.

71- نفسه ، ص 82.

72- D.Rivet ,Lyautey op , cit.p 168.

73- أحمد المنصوري ...مصدر سابق، ج 2 ص 75.

74- نفسه

75- بعـــد غزو بني مطير وبني مڭيلد، إهتم الجنرال هنريس بضرورة تنفيذ "سياســـة بربـــرية" فـــي الأطلس المتوسط حيث قال :" يظهر لي بوضوح أنه ســـيكون مـــن غيـــر السياسة عدم وضع الحالة الخـــاصة بهذه القبائـــل التي ســـنواجهها فـــي الحسبـــان " انظر : C.R.Ageron ,la politique berbère du Protectorat de 1913 à 1934 revue d'histoire moderne et contemporaine .t XVIII ,janvier –mars 1971, p 62.

76- أحمد المنصوري ...ج 2 ص75

77- نفسه.

78- F.Berger ,op ,cit ,p 82.

79- رواه ابن ماجة في كتاب" الفتن".

80- D.Rivet , Ethnographie...op ,cit , p 168.

81- أستأنس بمقالة الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي، صورة المغرب في الإستشراق الفرنسي المعاصر ، مجلة الإجتهاد 1994، عدد 25، ص 103.

82- Note de service n° 275z, khénifra 16 Juin 1914.

83- J.Le Prévost , op , cit , p , 21.

84- J.Pichon , op ,cit.p 15.

85- F.Berger , op ,cit , p 55.

86- D.Rivet , Ethnographie ...op, cit , p169.

87- نفسه.

88- M.Le Glay , Les Berbères du Mroc Renseignements Coloniaux 1916, pp.141-146.

89- V.Piquet , le peuple Marocain , le bloc Berbère, Alcan 1995, p5.

90- R.Basset , recherche sur la religion berbère , revue d'histoire des missions , vol .LXL,p 330.

91- P.Marty , le Maroc de demain , Comité d'Afrique française , Paris 1925, p 217.

92- المصدر السابق ، ص 282.

93- نفسه.

94- E.Michaux- Bellaire , l'organisme marocain Revue du monde musulman 1909, t IX, p3.

95- أحمد المنصوري ...ج 2 ص 131.

96- نفسه.

97- نفسه.

98- F.Berger, op , cit p 99.

99- J.Le Prévost , op , cit , p 146.

100- لوشتولي، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محيي الدين الخطيب ؛ مكتبة أسامة بن زيد، بيروت ، دون تاريخ ، ص59.

101- F.Berger , op , cit , p .99.

102- نفسه

103- مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دار الفكر، دمشق 1981، ص 36.

104- J.Le Prévost , op ,cit , p 49.

105- احمد المنصوري ج2 ، ص75 – 76.

106- G.Bernié Moha ou Hamou,Guerrier berbère, èd .Gautey Casablanca 1945 ,p.57.

107- F.Berger , op , cit ,p89.

108- G.Bernié , op ,cit , p 57.

109- نفسه.

110- نفسه.

111- J. Le Prévost, op , cit , p 90.

112- نفسه.

113- أحمد المنصوري ...م س .ج 2 ، ص 93.

114- نفسه.

115- J.Pichon , op ,cit ,p 18.

116- Rapport mensel du Protictorat , juin 1914, p 18.

117- M.le Glay , les sentiers op , cit , p 172.

118- نفسه.

119- نفسه.

120- J.Pichon , op , cit , p 22.

121- نفسه

122- Rapport N° 819 /8, compte rendu du chef de bataillon El Grar , 20 juillet 1914 , A.M.G .903

123- S.Guennoun, op , cit , p 212.

124- J.Pichon , op , cit , p 50.
125- lyautey l'africain , op , cit ,t1, p13.
126- Général Guillaume , les Berbères ..op , cit , p 158.
127- Télegramme 1 s 9/11 et 2s des 27 et 28 juillet 1914 A.M.G.267

128- نفسه.

129- J.Le Prévost , op , cit , p 135.

130- نفسه.

131-J.Pichon , op cit , p 30.
132- S.Guennoun , op .cit,p 211.
133- J.Pichon , op.cit , p 32.

134- نفسه .

135- نفسه

136- نفسه

137- نفسه ، ص 158.

138- المصدر السابق ص ، 95.

139- نفسه. ص 158.

140- أحمد المنصوري ج 2 ، ص95.

141- المصدر السابق ، ص 35.

142- المصدر السابق ، ص216.

143 - المصدر السابق ص 63 .

144- J. Pichon , op , cit p 147

145- Rapport n° 162 RZ, le colonel Laverdure à Résident général khenifra , le 9 octobre 1914, carton 56.

146- نفسه

147- J.Le Prévost , op.cit, p 147.

148- J.Le Prévost , op , cit , p 140.

149 - نفسه.

150- المصدر السابق ص 215.

151- J. Pichon , op , cit , p 36.

152- المصدر السابق ج 2 ، ص 118

153- نفسه ص 139

154- نفسه.

155- المصدر السابق ، ص 141

156- المصدر السابق.

157- أحمد المنصوري ج 2 ، ص 70-71.

القسم الثاني

المعركة

1- محاولة فك الحصار على خنيفرة باختطاف قائد المقاومة.

يتضح ، انطلاقا من التمعن في مقومات الحصار و الظروف التي مر بها، أن الجنود الفرنسيين أصيبوا بالعياء و الإرهاق، وان حياة الخنادق أصبحت لاتطاق ، ولم يكن قائدهم في غفلة من هذا الإحساس حيث لاحظ انهم يشعرون بضيق العيش ومرارته، ونفس الشعور أبداه ليوطي عندما صرح بأنهم (أي عساكر خنيفرة):

كانوا في حالة يأس" (1).

وقد وجد Laverdure أن رفع المعاناة عن جنوده وإنهاء حالة اليأس، الذي استولى عليهم وفك هذا الحصار الممل والقاتل، يستلزم مهاجمة المقاومة الزيانية ضدا على تعليمات رؤسائه، الذين ما انفكوا يؤكدون على التمسك باستراتيجية الدفاع ، إذ كيف يمكن لقـائد عسـكري مثله ، وتحت تصرفه حوالي ألفي رجل مدججين بأسلحـة فتاكـة، أن يرى جنوده يتضورون جوعـا، ويتعرضون لأمـراض مختلفة ، تفتك بهم، دون أن يعطيهم الفرصة لأخذ الثأر من هؤلاء المتمردين الواقفين قبالتهم.

أمام هذه الوضعية المزرية خطر ببال الكولونيل أن يخطف زعيـم المقاومة الزيانية، وإنهاء هذا اليوم الغام، ولو أدى ذلك إلى مخالفة أوامر رؤسائه.

كــان موحا وحمو في هذا الوقت بالذات قد نزل مع عشيرته وقــبائله مــن الجبال التي بدأت تكسوها الثلوج ، وخيم في ملتقى نهــري سرو وشبوكة بقرية لهري – في بداية خريف 1914– في تحدّ سافر للجيش المرابط بخنيفرة، على بعد أربعة عشر كيلومترا.

ومــا استطار خبر نزول موحا وحمو بهذا المكان حتى تيقن Laverdure ، أن الحــظ بســم له أكثر مما ينبغي ، وان الفرصة واتــته لاختطافه وتخليد اسمه في التاريخ العسكري الفرنسي (2). وممــا شجعه على المضي في تنفيد خطته هذه ، التحاق اثنين من رجــال القــائد بالمعسكر الفرنسي ، وهما عمر واخوه ، وهما ابنا أخت له، من قبيلة أيت باجي، إحدى بطون أيت حركات (3).

كــان عمــر و أخــوه قد زودا الكولونيل بمعلومات تفيد أن الإنهاك أخذ يدب في صفوف المقاومة وان أعداد المقاتلين ، فرسانا وراجلة أخذ يتناقص ، كما زوداه بمعلومات عن البلاد وطبيعتها ، ومواردهــا ، والخصومات الأسرية المستشرية ، وان القبائل على استعداد لاعلان طاعتها للفرنسيين ، لولا سطوة القائد ، وباختصار أصــبح من السهل اختطاف خالهما غنيمة باردة ، فتنتهي المقاومة التي استنزفت القوات الفرنسية (4).

ولكـــن كيـــف يمكـــن الوثـــوق برجلين فتلا له في الحبل والغـــارب ، ويعرف أنهما اقترفا جريمة السرقة، والتحقا بالمعسكر الفرنسي خوفا من العقاب ؟

لقد كان ليوطي حريصا على ألا يثير المقاومين ، وكان يصل إلى حـــد خنق مبادرات أعوانه بالرغم من أن النجاح كان يبررها، ذلـــك لأنه كان يرغب أن يعيش ، خلال الحرب في حالة هدنة مع المجاهدين (5).

ولـــم يكن لتخفى عليه اندفاعات لا فيردور، وما أعرب عنه غيـــر مـــا مرّة، من أن استراتيجية الدفاع لا يمكن الاعتماد عليها بصورة مطلقة تجاه أناس حريصين على مواصلة القتال والتضييق عـــلى المحتلين، ولذلك زار خنيفرة بتاريخ 5 أكتوبر1914 بمعية الجـــنرال هنريس، للحد من حماس الكولونيل من جهة، ومن جهة أخرى لتهنئة الجنود على ما بذلوه ويبذلونه في الدفاع عما يسميه **الحصن المتقدم لاحتلالنا ضد الجموع البربرية العدوانية (6).**

خطـــب ليوطي في عساكره، وأوسع لا فيردور مدحا عندما وصفه بقائد عسكري كبير، وبالضابط اللامع المقدام (7). كما أشاد بـــبطولاته فـــي أفـــريقيا وســـواها، غير انه حثه أيضا على عدم المغامـــرة و المجازفـــة، وأمـــره أن يتقيد باستراتيجية الدفاع عن المركـــز ليـــس إلا، في انتظار ما ستنجلي عنه الحرب في أوربا،

معيــدا إلى أذهان الجميع ، ضباطا وجنودا، أن مركز خنيفرة كان ولا يزال النقطة الأساس لإيقاف غارات المقاومة الزيانية، وتقدمها نحو الضفة اليمنى لنهر أم الربيع ، بل النقطة الأساس التي يحسب لهــا ألف حساب على المسرح السياسي الفرنسي في المغرب (8)، ولهــذا ينــبغي – في الوقت الراهن – التزام جانب السلم إزاء المقاومة ، ولكنه ينبغي في نفس الآن تهيئة الأرضية التي سيزحف عليها الجنود فيما بعد ، باكتشاف النزاعات القبلية القابلة للانفجار، واســتغلال الخصــومات الأســرية، وخاصـــة فـــي سلالة العائلة الأمحـــزانية، والــتعرف عــلى الــزعماء الطموحين الذين يمكن اصــطناعهم مقــابل امتيازات ورشاوى لخلق مناخ مناسب لتلغيم القبيلة وتفكيك المقاومة.

لا شك أن ليوطي الذي استحضر– وهو يتجه إلى خنيفرة – مغامرتي جمعة الغزوات بالجزائر و القصيبة بالمغرب، كان يسعى إلى تجنب تكرار إهانة أخرى للجيش الفرنسي في بلاد زيان.

الواقعــة الأولى – وهـــي جمعة الغزوات – جرت سنة 1845 عندما خالف الكولونيل De Montagnac أوامر رؤسائه، وأقــدم على هجوم خاطف على قائد المقاومة الجزائرية الأمير عبد القــادر في ضاحية وهران، غير أن خطته فشلت فشلا ذريعا حيث

فقــدت المجموعـــة العسكرية التي كان يقودهاMontagnac جميع ضباطها، من بينهم قائد الحملة وجميع الجنود عدا سبعة أفراد (9).

الواقعـــة الثانية- (وهي معركة القصيبة) – جرت في بداية يونيــو ســنة 1913 عندما هاجم الكولونيل Mangin – وهو أحد الضـــباط المناهضين لصيغ ليوطي في التهدئة – قرية القصيبة بهدف وضع حد لمقاومة موحا و سعيد الويرّاوي ،الذي كان يحارب الــتوغل الفرنســـي على مسافات واسعة تمتد أحيانا من جبال آيت ويــرّا إلى سهول تادلة، وإلى تخوم الشاوية، ورغم أن Mangin أعــد لهذا الهجوم ست كتائب ومدفعين (75 مم و65 مم)، وفيلقين من الخيالة السبايس ، وألف من الخيالة المرتزقة ، أي ما مجموعه 5200 رجــل، يقودهــم 130 ضابطا ، فإن الحملة انتهت بكارثة حقيقيـــة حيــث بلغ مجموع الخسائر 320 رجلا بين قتيل وجريح ومفقــود خـــــلال معـــارك الثامن و التاسع و العاشر من يونيـــو 1913 (10).

ولكن هل التزم Laverdure بما سمعه من المقيم العام أم أنه صـــرف نظـــره عن تعليماته ؟ كيف نفهم عندئذ رغبته في خوض المعركة ضد المقاومة واختطاف زعيمها ؟

لـــنرجئ الإجابة عن هذا السؤال إلى حين ، وسنحاول الآن استقصاء بعض ملامح شخصية الكولونيل Laverdure من خلال بعض الإشارات التاريخية الملتقطة هنا وهناك.

مـــن هـــو Laverdure ؟ كل ما نعرف عنه أنه انخرط في الجيـــش الفرنسي سنة 1880 بصفتـــه جنديا من الدرجـــة الثانيـــة (Deuxième classe) ، وفي ظـــرف إثني عشر عامـــا رقي إلى مرتبة نقيب (11)، وفي الهند الصينية ومدغشقر وافريقيا السوداء، شارك في العمليات الصعبة وعانى معاناة قاسية، ولم تنل منه شيئا، فكـــانت حياتـــه المهنية حافلة بالإنجازات، وتداولته الألسن حتى حســـبه الـــناس شخصـــا آخـــر (12)، كان إذا يتوفر على خبرة بـــالحملات العسكرية ، لكنه في الميدان السياسي كان ، كما يصفه ليوطي:

... بدون علاقات في باريس ، وبدون دعم سياسي" (13).

فـــي وســـعنا الآن أن نرجع إلى السؤال الذي طرحناه آنفا كيـــف نفهـــم رغـــبة Laverdure في شن الحرب على المقاومة الـــزيانية ضدا على التعليمات الرسمية ؟ وبتعبير آخر هل كان في وســـعه أن يتجـــنب الصدام، وهو الذي يرى أن دوره أصبح دور خازن الحامية ، يحصي جنوده كل صباح ، ويعد بكل عناية جدولا للموتى و المرضى و المفقودين، ويراقب الأسلحة والذخيرة ؟

يـــبدو لـــنا ، بعد أن حاولنا تركيب تلك الصورة على النحو الذي نحسب أن laverdure كان عليها حقا ، أن الجواب لا يكون إلا بالســلب، ولـــم يكـــن له إلا أن يكون كذلك لاجتماع جملة من الأسباب الموضوعية.

1 – كان Laverdure ،الذي سطع نجمه في إفريقيا معجبا بنفسه ، ويعتقد أنه بعد خبرة طويلة في الحملات الكبرى، لا يمكن أن يضل أو يخطىء إذ كيف يمكن أن يتوفق في مناطق كثيرة من الإمـــبراطورية الاســتعمارية الفرنســية ، و لا يتوفق على هؤلاء الفلاحيـــن الذين لم يروا من الدنيا إلا محيطهم ، وحتى إذا كانوا قد حققوا بعض الانتصارات في بعض المعارك ، فإنما هو راجع إلى الجمـــود و التقيد بعقد التعليمات الصارمة ، وهذا ما افصح به أمام ليوطي في خنيفرة:

أليس من الصعب يا سيادة الجنرال أن يتردد المرء في انتهاز الفرصة و الهجوم على العدو رغم التعليمات ، سيما و أنــــــه (أي العدو) على مرمى من بنادقنا ، وان ذلك لا يتطلب إمكانات كبيرة للإنتصار عليه (14).

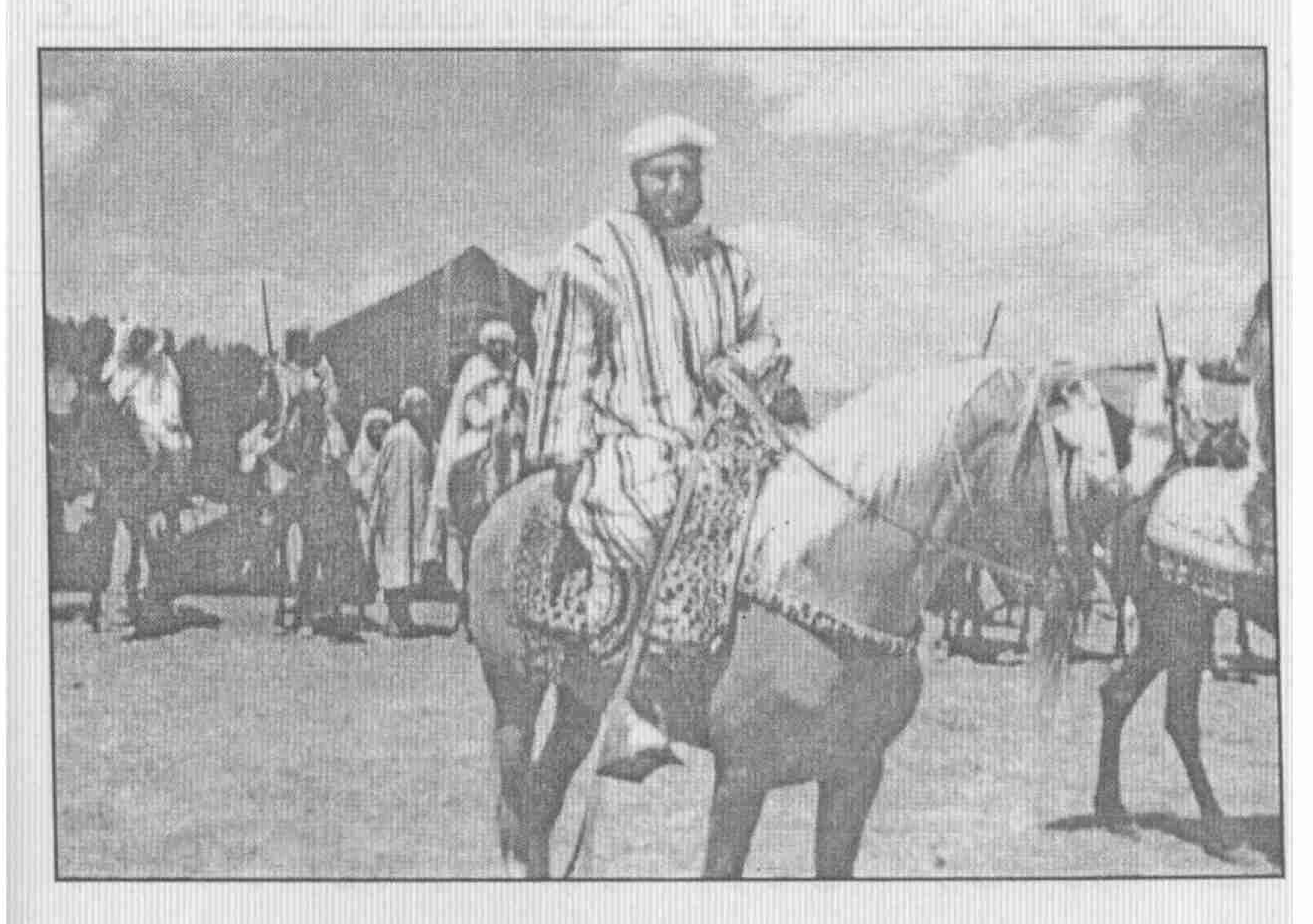
2 – كـــان Laverdure ينـــتمي إلى أولئك الضباط الذين يـــرون أن غـــزو المغـــرب يكلف غاليا ، ويجند أعدادا كثيرة من القوات المسلحة، وأن عملية التهدئة تسير ببطء كبير لا تحقق نتائج



نموذج الخيمة الزيانية
التقطت الصور سنة 1925

مرضـــية ، بسبب نهج طريقة سلبية وجامدة في الإحتلال ، وهي طــريقة بقعة الزيت و التوغل السلمي التي أعاد ليوطي انتشارها في المغرب ،انطلاقا من تجربته في الطونكين (Tonkin) ومدغشـــقر والجزائر، ولو أن قيادة الأركان سارت على نهج آخر مناقض للأول، واعتمدت على القوة العسكرية، واقتربت من" الجبل الـــبربري" وهـــاجمت ببعض الكتائب من السينغاليين تلك القبائل المعصوصبة التي لا تؤمن إلا بالقوة ، وهي لا تقدر أن تقاوم ادنى هجـــوم – لنـــتهت المســـالة المغربية في غضون ستة أشهر، ولأعيـــد ثلـــثا الجيش الى الميتروبول للدفاع عن الوطن ، ومن ثم نكـــون قد قلصنا النفقات ، فضلا عن توفير الملايين من الفرنكات الـــتي تـــوزع خلسة على القبائل لشراء الذمم ، أو لتسليحها لتنقلب ضدنا بعد ذلك (15).

3 – غير أن الذي أغـــاض Laverdure ، وجعلـــه يفقـــد صوابه هو النخوة و الحيوية التي لا زال الزيانيون - رغم الحرب- يـــنعمون بهـــا. فقد اشارت المصادر الفرنسية (16) أنه أزداد حنقا وغيضـــا عندما علم أن موحا وحمو، وهو في الستين من عمره، رزق بمولـــوده الخامس عشر من ذرية الذكور، وكان قد خص هذا الحدث باحتفال كبير ، على عادة زيان في إقامة الحفلات ، شاركت فيـــه القبائل بحيوية ونشاط مفرط ، ليغيض نصارى خنيفرة الذين



حفلة زيانية أقيمت وسط غابة جَنْ ألْماس
سنة 1930

كـــانوا يعانون اليأس و الملل (17)، وليثبت لهم أن زيان لا زالوا يعيشون في مرحهم كما كان الأمر قبل مجيئهم، وأنه لا يزال قائدهم المحترم بلا منازع، وقد جاء في كتاب J.Le Prévost ما يؤكد ما ذهبنا إليه حيث يقول

كان لغط القوم – هذا الصخب الذي أحدثه الزيانيون غــير مكترثين بمن حولهم – هو الذي أثار سخط الكولونيل ودفعه للانتقام من موحا وحمو (18).

و يضيف في موضع آخر:

توافدت القبائل على القائد ابتداء من السحر حتى المساء، وهي تصحب معها مئات الخرفان لإقامة شوى فخــم، إن هؤلاء القوم الذين يعتبرون الحرب تسلية ، نسوا أو تناسوا أن العدو يرابط على بعد بضعة كيلومترات من خيمة قائدهم (19).

2- الإستعداد للهجوم على مخيم لهري.

في ضوء ذلك كله جمع الكولونيل - في يوم 12 نونبر، على الساعة التاسعة ليلا - ضباط الحامية ورؤساء المصالح، وأخطرهم بأنه يعتزم تنفيذ غارة على مخيم موحا وحمو بقرية لهري (20)، وأوضـــح لهـــم أن المقصود هو اختطاف القائد الزياني ومساعديه الأقربين ، ونهب الخيام و القطيع ثم العودة إلى خنيفرة قبل الساعة

الثامـــنة صباحا من يوم 13 نونبر ، وطبعا استبعد أي مقاومة من الجـــانب المغـــربي (21)، وكان في مجلس أركان الحرب ضباط خـــبراء بالمقاومة الزيانية منهم رئيس المخابرات القبطان Rack Brancaz الـــذي حـــذره من الأخطار التي يمكن أن تنتج عن هذه الغارة، ولم يكتف بهذا بل ذكره بمغامرة Mangin الذي ظن هو الآخر أن في مقدوره القضاء على موحا وسعيد الويرّاوي ، فكانت كارثة بالنسبة لجيشه.

كـــان مركـــز خنيفرة يتوفر على مخبرين سريين من زيان يترصدون أخبار موحا وحمو أولا بأول بحيث ينقلونها في حينها ، وكانوا قد أبلغوا مكتب الاستعلامات أن ما جاء به عمر وأخوه لا يـــتطابق مع الواقع ، كما ابلغوا أن هذين الشخصين اقترفا جريمة الســـرقة ، فطر دهما القائد من القبيلة (22). غير أن Laverdure الـــذي كان يحلم بتقديم رأس موحا وحمو على طبق ، أعرض عن النصيحة، و أصر على خوض الحرب بأقصى سرعة ، معقبا على ملاحظات رئيس المخابرات قائلا

... سرقا أم لم يسرقا ، الذي يهمني ليس الأفعال التـــــي اقترفاها ، ولكن المهم عندي هو أن الزياني وجماعته استقرا بكل اطمئنان على بعد 10 كيلومترات من هنا . وقد أبلـــغاني (أي عمر واخوه) انه يمكننا الاعتماد على أصدقائهما في

المخيم، و بفعل المباغثة نستطيع، ولابد لنا من ذلك، إلقاء القبض على موحا وحمو وجماعته، وهاهو مشكل زيان قد انحل وزعيمهم قد أسر أو قتل (23).

لقد بات واضحا إذن أن الكولونيل لا يخضع بسهولة ولا أحـــد في مجلس قيادة الأركان يستطيع أن يثنيه عن قرار الهجوم، فما هي الوسائل التي تم بها تنفيذ الإغارة؟

- **الجيش الفرنسي :**

كـــان الجيش الفرنسي (24) الذي هاجم قرية لهري يوم 13 نونبـــر يتركب من 7 سرايا، وقطعتين من مدفعية 75 مم و65 مم (جبـــلية) وفصـــيلتين من الرشاشات، ومفرزتين، وفرق من الرماة الجزائريين، و الخيالة، والكّوم والمخازنية.

كـــان هذا الجيش قد وصل إلى المغرب منذ أن بدأت فرنسا تحتل أطراف البلاد في بداية القرن العشرين، بمعنى أنه تدرب على الحرب بالمغرب، وتعوّد الشدة، وعارك المقاومة المغربية منذ أمد بعيـــد، في عدة مناطق، كما أنه دأب على استعمال وعورة الجبال التي بدأ يعرف مسالكها، وتعرف على تاكتيك المقاومة (25)، وكان يؤطـــره ضـــباط ذوو رتـــب عاليـــة، نذكر منهم على الخصوص الكـــومـــندارين .Colonna de lecca وFages و القـــبطـــانين Papillon رئيـــس الأركـــان وقائـــد ســـلاح الفرسان، و Ract

Brancaz، قـــائد المشاة ورئيس مصلحة الإستخبارات، المجموع حوالـــي 1800 رجل و 60 ضابطا ، درسوا في الكليات الحربية، وتدربوا على الحرب في إفريقيا ، ويقودهم الكولونيل Laverdure الذي ينتمي لسلاح المشاة (26) وقد قسم هذا الأخير جيشه إلى خمس مجموعات

مجموعة A ، تحت قيادة الكومندار .Colonna de lecca ؛ وتضـــم الســـارية الاســـتعمارية، ومدفعية 75 مم (جبلية) وسيارة الإسعاف مع الطاقم الطبي ، و15 بغلا.

مجموعـــة B، تحـــت قيادة القبطان Hornecker، وتضم سارتين من الرماة الجزائريين ، ومدفعية 65 ، وسلاح الفرسان

مجموعة C، تحت قيادة الكومـــدار Durmelat ، وتضم، بالإضافـــة إلى قـــائد الحملـــة Laverdure ســـارية مـــن الرماة الســـينغاليين وأربعـــة فيـــالق، وفصـــيلة مـــن الرشاشات، والكُوم والمخازنية

مجموعـــة D، تحـــت قيـــادة الكومـــندار Fages، وتضم ساريتين وكوكبة من الرماة مسلحين بالرشاشات، وسلاح الفرسان، وطبيب ودواب الحمل

مجموعـــة E ، تحـــت قيادة القبطان Croll، تولت حماية مركز خنيفرة مع بقية الفرق.

- إمكانات المقاومة.

أمـــا المقاومـــة، فكـــانت لا تتوفر على جيش نظامي بمعنى الكـــلمة، بـــل على مجموعات من المتطوعين جاءوا من مختلف القـــبائل الزيانية بخاصة، وعددهم غير قار، فهو يزيد عند ما يفرغ الناس من جمع محصولا تهم الزراعية ، وينقص عندما يقبل موسم الحصاد ، أو عندما تقل التموينات ، ويقدم لنا M.Leglay ، وهو أحد الضباط المتخصصين في الشؤون الزيانية ، حقائق فيما يتعلق بالإمكانات العسكرية المتوفرة لدى المقاومة ، يقول

نحن الذين تخيلنا أن موحا وحمو يمكن أن يتوفر على جيش نظامي، لما رأيناه من دهاء لدى الزيانيين في إدارة المعارك والمناورات في القتال، و الواقع أن مجموعاته كانت تضم نواة قوية، غير أنه لم يكن أبدا يتوفر على جنود بالمعنى الذي نعطيه للكلمة (27).

مـــــاهي هذه النواة التي يتحدث عنها le Glay ؟ يبـــدو أنه يشـــير إلى عشـــيرة القائد المتكونة من الأولاد وأبناء العمومــــــة، والأقـــارب المقـــربين، الذين كانوا يشكلون بطانته، وهي العشيرة الأمحزانية التي أوصلته إلى منصب الأمغار في نهاية القرن التاسع عشـــر، وآزرتـــه بعد ذلك مع الحملة السلطانية ليبسط نفوذه على مجموع قبائل زيان.

يــأتي بعــد ذلــك الحــرس الخاص للقائد أو ما كان يسمى "بالشناكْطية" (28)، وهي قوة تتألف من ثلاثمائة رجل ، يحيط بها القائد نفسه ، ويهاجم بها كل من يناوئه، أو يخالف أوامره، وهؤلاء الشناكْطية هم الذين وصفهم Le Glay ب المحاربين (29).

يضــاف إلى ذلــك بعض العناصر من الحملة التي بعث بها السـلطان مـولاي الحســن إلى موحا وحمو ليركز الأمن بأغوار الأطلس ، فعلى إثر الحوادث و الاضطرابات التي اندلعت في فاس بعــد توقيــع عقــد الحماية ، تنوسيت الحملة الخنيفرية ، ولم تعد تتوصـــل بمؤونتها ، فتفككت وتشتت شذر مذر ، فمنهم (أي الجنود السلطانية) من تزوج واستقر بزيان بصفة نهائية ، ومنهم من طلب الاندمـــاج فـــي حرس القائد ولكن ما هو عدد المقاتلين الزيانيين الذين واجهوا الهجوم على مخيم لهري ؟

المصادر (30) لا تسعفنا في الإجابة على هذا السؤال بشكل دقيـــق، غير أن F.Berger ، يشير إلى أن هؤلاء العناصر كانت منظمة على شكل مجموعات صغيرة أو ما يسميه ب (D'jich)، يتراوح عددها بين 25 و 30 مقاتل، تحت قيادة أبناء القائد ، ولكنه لا يقــدم أرقامـــا مضبوطة حول أعداد هذه الجيوش أما J.Le Prévost (31)، فيوضح أن حرس القائد كان يتكون من خمسمائة رجـــل ، اخـــتيروا من العناصر القوية و المحاربة، وسلحوا أحسن

تسليح ، ولكنه يدمج في هذا العدد عشيرة أمحزون ، و الحالة هذه انه لا يمكن أن نتصور أن جميع أعضاء العشيرة الأمحزانية كانوا مقاتلين ، ومن ثم يصبح عدد خمسمائة مبالغا فيه.

ومهما يكن ، فإن هؤلاء المقاتلين ، سواء كانوا من الشناكْطية أو من عائلة موحا وحمو أو من بقايا الحملة السلطانية ، هم الذين كان الفرنسيون يسمونهم ب الجيش النظامي (Les réguliers de Moha ou Hamou)

<u>المصدر الثاني</u> الذي تجلب منه المقاومة مقاتليها هو القبائل التي تشكل خزانا كبيرا، فكلما نادى القائد بالجهاد إلا ولبى الناس دعوته بنشاط، وتوافد عليه متطوعون من القبائل البعيدة و القريبة، وكل الذين يتطلعون ، ويطمحون في استرجاع حريتهم ، وهذا ما وقع بعد احتلال خنيفرة ، يقول الضابط كْنون وهو يتحدث عن استعداد موحا وحمو لحصار المدينة:

" لم يجد موحا وحمو أدنى صعوبة في إقناع زيان بأن الله غاضب على وجود النصارى بخنيفرة ، وانه في انتظار انسحابهم المرتقب ، فإن واجب كل مسلم هو إقامة حراسة مشددة حول ثكنة خنيفرة وجميع المراكز الأخرى ، استعدادا للانقضاض عليهم ، عندما يأذن الله بذلك (32).

أمـــا بالنسبة للسلاح ، فلم يكن المجاهدون يتوفرون إلا على أســـلحة بالية، يعود تاريخها إلى نهاية القرن التاسع عشر، أو على قطـــع صـــغيرة من الأسلحة الحديثة ، استطاعوا شراء ها بأموالهم الخاصة، عن طريق التهريب (33).

ولما بدأ الجهاد عمل القائد على تسليح زيان، معتمدا على ما كـــانت المقاومـــة تغنمه من أيدي أعدائها الاستعماريين ، وهكذا لم يـــتعـــرف الزيـــانيـــون علــــى البنادق الحديثـــة مثـــل Mauser وWinchester و Lebel 86 – التي كانوا يفضلونها لأنها تحشى بـــثمان رصاصـــات – و Gras، و Martinis إلا باحتكاكهم مع القوت الاستعمارية ويسجل P.Belot في كتابه trente ans de baroud حقـــائق عـــن الكيفيـــة التي كان الزيانيون يعتمدونها للإســـتيلاء عـــلى الأسلحة لنتأمل هذه الشهادة التي لا تحتاج إلى تعليق

هؤلاء المردة المغاربة كانوا يتسللون تقريبا كل ليلة إلى داخل المعسكر (الفرنسي)، فيسرقون منه البنادق بعد قتل الحراس، كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر عراة ، بعد أن يطلوا أجسامهم بشحم ابن أوى، الذي لرائحته خاصية تخذير الكلاب ، ولم يكن للواحد منهم سلاح سوى خنجر حاد ولا يحدثون بحركتهم أكثر

مما تحدثه عادة ،ورقة يابسة في الريح ، فلا أحد منا يراهم ، ولا أحد يسمعهم ، وينجحون دائما تقريبا في أعمالهم (34).

ويضيف J.Le Prévost.

هنا في خنيفرة ، تعرف المحاصرون على جرأة وحيلة هؤلاء الأشرار الذين لا تخيفهم لا القنابل و لا الرشاشات ، و الذين كان همهم الوحيد أولا وقبل كل شيء هو التزود – على حساب المحتل – بأسلحة عصرية ... كانوا يتسللون ليلا إلى داخل المعسكر المتكون من ألآف الرجال ، فيذبحون الحراس سرا ، ويقطعون الأسلاك الشائكة بكل هدوء كما كانوا يتوغلون تحت الخيام ليسرقوا البندقية المربوطة مع ذلك في معصم رجل ، و يسرقون حتى الخيل و الشعير (35).

وفـــي ميدان التدريب ، اكتسب الزيانيون مهارات عسكرية، وروحـــا قتالية عالية من خلال الحروب التي خاضوها في الفترات الغابرة (36)، ومن خلال عملية الإنتجاع التي تتطلب دوما الدفاع عـــن المراعي، أو الإستزادة منها، حتى أن القبيلة كانت كما يقول Masqueray بمثابة

فيلق في تعبئة كاملة (37).

فهم جند مستعدون للدفاع عن كيانهم ، إذا فاجأهم العدو على غـــرة، ومن جهة أخرى عني الزيانيون بالفروسية منذ أمد بعيد،

حـــتى اشـــتهروا بهـــا، وكان الرجل البسيط – على قلة يده- يملك فـــرســـا (38)، وكانت هذه الفروسية سببا من أسباب تفوقهم على غيرهم، كما كانت أداة لإخضاع القبائل لنفوذ القائد، ومن ثم لسلطة المخـــزن (39). زد عـــلى ذلك قوة الأجسام، ونشأتهم على شظف العيـــش والمصارعة، وسباق الخيل، و الرمي (40)، وقد استغلوا هـــذه المزايا بنجاح، وخاصة قوة الأجسام في المعارك التي كانت تـــدور وجهـــا لوجـــه حيث كانت تستعمل فيها السيوف، و الرماح والحرب، ولاسيما الخناجر على أنواعها (41)، وقد أشاد الجنرال كْيوم – الذي كان يومها شابا ، شارك في معارك الأطلس – رغما عن أنفه، بشجاعة المحارب الأمازيغي صراحة حيث قال

إن استهانته بالموت كان يقوي كبرياءه ... إنه محارب لا مثيل له ... المتفوق بلا شك في أفريقيا الشمالية (42).

ويعرفه Gavin Max well الإنجليزي، في كتابه EL Glaoui dernier seigneur de l'Atlas. ، بقوله

كانت المدافع لا ترهبه، و لا توحي إليه بأي تخوف، وكان دوي الطلقات النارية تستهويه كما يستهويه تجمع طبيعي، كان ينقض منتصبا نحو فوهة الرشاشة، كان بالنسبة للفرنسيين العدو المرعب و المفزع الذي يملك خبرة طويلة في فن الكمائن و الهجومات الخاطفة (43)

أما المنصوري الذي عاش طفولته وشبابه في زيان، فيقول

وإنما هو جيل من البربر هائج، وفي غمرات حروبه رائج هائج، اعتزازه بصارمه المبير وفرسه المغير، فخره بالشجاعة والإقدام إذا افتخر غيره بالمحابر و الأقلام (44).

ويضـــيف في موضع آخر – وبمناسبة الزيارة التي أعادت إليـــه ذكرى الصبا و الشباب في الأطلس الفينان – أنشد في إحدى قصائده يقول

عرانين في أنسابها من برابر ** لصنهاجة أولي السيوف الشعاشع
أعزاء في أحسابها إن يهب بها ** غيوث لدى النكبا ليوث الوقائع (45).

كمـــا تذكـــر المصادر المغربية أيضا أن زيان كانوا من أشد القـــبائل الأطلسية شكيمة وأصعبها انقيادا، لا تهتك لهم حرمة ولا تخفر لهم ذمة (46).

غيـــر أن الـــذي احـــتفظ لهذه المقاومة بحيويتها الكامنة هو عقيدتهـــا القوية العميقة التي لم يستطع الاستعمار قتلها على الرغم من جهوده الفكرية و الروحية و الاجتماعية و السياسية، هذه العقيدة التي تدعو إلى الجهاد لتحقيق الحرية و الاستقلال ، وعدم الخضوع للمحتـــلين أيـــا كـــانت قوتهـــم المادية، لأن القوة المادية لا تخيف المجاهدين في سبيل الله كما جاء على لسان الأعداء أنفسهم :

إن الخطر الحقيقي كامن في الإسلام ، وفي قدرته على التوسع إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي (47).

إن هـذه العقيـدة الحيـة هي التي بعثت الحياة في شرايين المجـاهدين الأفـذاذ بعـثا جديـدا. و مـن يدرس المعارك التي خاضـوها، منذ أن بدأت فرنسا تقتطع أطراف المغرب، في العقد الأول من القرن العشرين ، يجدها تستند أصلا إلى هذه العقيدة

هذه حقيقة لامراء فيها ، تستحق أن نقف عندها وقفة تأمل، لكـي ندرك قيمة هذه العقيدة في مقاومة الاحتلال ، ولكي ندرك أن الاستعمار لم يكن عابثا عندما حاول تحطيم هذه العقيدة في المناطق الأمازيغيـة أولا ، بتأسيس ما أسمته فرنسا ب المدارس الفرنسية الـبربرية "، وهـي مدارس كان يراد منها احتواء حركة الجهاد الأمازيغي التي اتخذت من جبال الأطلس معقلا لها (48).

ومـا قدره الاستعمار كان حقا ، وقد وجده حقا، فقد تأججت جذوة الجهاد بفضل هذه العقيدة، وكانت مشعلا وهاجا أضاء طريق أصـحاب العقيـدة فـي الله، وهم يقودون الصفوف المكافحة ضد الاستعمار،" **فكانت لهم بذلك المكانة السامية و المرتبة العظمى في الـذب عن حوزة الإسلام ومكانته العالية بدمائهم النفيسة الزاكية، وأموالهـم الطائلة الكثيرة الغالية في استماتة لأقصى حد، وصبر**

على مضض عيش لغاية جهد ، حتى ذبلت منهم الوجوه وتغيرت البشر، وبلغوا غاية لا يستطيع البشر العيش معها عادة ..."(49).

لقد كان شعار المقاومين في ظل العقيدة الإسلامية (" قل هل تربصـــون بـــنا إلا إحدى المحسنين"، سورة التوبة/52) النصر أو الشهادة .. في ظل هذا الجو المفعم بالإيمان تلقى أهل قرية الهري هجوم الجيش الفرنسي يوم 13 نونبر 1914.

3-معركة لهري الأولى و الإستيلاء على المخيم.

لم نعتمد على الرواية الشفاهية التي تحكي عن المعركة إلا بشـــكل جزئي نظرا للصعوبات التي اعترضتنا خلال تجربة أولية مع بعض العناصر التي كانت مشاركة أو عاصرت بعض الأحداث، أو ســـمعت عـــنها. فجل الروايات كانت تأخذ منحى سياسيا، مع تضـــخيم للمســـاهمة الفردية للعناصر المستجوبة، لهذا بدا لنا من الضـــروري ألا نستند إلا على مؤلفين، كانوا شهود عيان لأحداث الـــتي يروونها أمثال القبطان الجزائري سعيد كنون الذي يروي – خـــبر معـــركة لهري على مدى عشرين صفحة في كتابه الجبل الـــبربري "، والجـــنرال كْيـــوم الذي تحدث عن الواقعة باقتضاب، محمـــلا أسباب الانهزام للكولونيل لا فيـــردور، أما J.Pichon ، فيعتـــبر المصدر الوحيد الذي خص الواقعة بمؤلف كامل، في مائة وثمانية وثمانين صفحة، ولم يكتف بدراسة معركة لهري بتفصيل،

بل وضعها في إطارها التاريخي، فقام بالتطرق لغزو زيان وما نتج عنه من ردود فعل المقاومة، وتناول بالتحليل نتائج المعركة بالنسبة لفرنسا.

وبالرغم ممـــا في هذا الكتـــاب من التحيز البين للأطروحة الاســتعمارية، فإنه يعرفنا بأطوار المعركة وجوانبها المختلفة. هذا بالإضـــافة إلى تقارير ومذكرات الضباط، وخاصة تلك التي كتبها الجنرال هنريس و المارشال ليوطي.

أمـــا مؤرخـــنا، أحمـــد المنصوري فيعتبرالوحيد – من بين المصادر الوطنية – الذي وضع الحادثة في إطارها الزمني، بشيء مـــن التوســـع، إذ خصص حوالي 11 صفحة للواقعة التي تميزت بمزجها البعد التاريخي بالبعد الملحمي

وعند قراءة هذه المؤلفات المختلفة، تبدو المعركة التي دارت رحاها على ضفاف وادي اشبوكة واضحة الملامح، إذ يسهل وصف الأطوار الرئيسية للمواجهة بدقة كبيرة، لأنها لم تتخذ بعدا أسطوريا، ولم يمتزج فيها الواقع بالخيال نظرا لقربها منا ، وقد حاول مؤلف كـــتاب لهري"، وهو شاهد عيان كما أسلفنا، صياغة هذه الواقعة صـــياغة تاريخية بالرغم من أن بعض الأحكام لن ترضي الطرف المغربي كليا.

كيف تم الهجوم؟

غـــادر الجيـــش الفرنسي مدينة خنيفرة حوالي الساعة الثالثة صـــباحا مـــن ليـــلة 13 نونـــبر 1914، بعدمـــا قســـم الكولونيل Laverdure قواته إلى أربعة طوابير:

مجموعة الكومندار Durmelat الذي كان يسير معها قائد الحملـــة ومعاونوه الاقربون، ثم مجموعة القبطان Hornecker ومجموعة colonná de lecca، وفي المؤخرة مجموعة Fages.

عبر الكولونيل القنطرة التي تفصل خنيفرة إلى شطرين، وفي حســـابه أن الطـــريق أمامه سهل معبد، إذ ليس في المخيم الزياني ســـوى 300 مـــن المسلحين بتسليح رديء، وأن القبائل في شوق لانتصار قوات الإحتلال للانعتاق من الأسرة الأمحزانية، وبمجرد خروجه من المدينة توجه نحو الجنوب في ظلام حالك.

كانت التعليمات الحربية التي أصدرها Laverdure تطبق بدقـــة وصرامة متناهيتين، حيث لم يسمح للجنود باستعمال الفوانس والمصابيح، الأمر الذي جعلهم يتلمسون طريقهم تحت هذه الظلمة، وهم يخبطون خبط عشواء، فوق أرض مبللة بالأمطار التي لم تتوقف إلا منذ يومين (50).

اجـــتاز الجيش المغير نهر بوزقور (51) واضطر إلى وقفة لأن حجـــم مياه النهر كان مرتفعا نسبيا ولأن الطريق ضيقة، وبعد قـــليل اســـتأنف ســـيره ليتوقف مرة أخرى حوالي الساعة الرابعة

والنصـــف صـــباحا، وعـــلى بعد خمسة كيلومترات جنوب شرقي خنيفرة، لتأخذ كل مجموعة من الجيش مواقعها استعدادا للهجوم.

أخـــذت المجموعة الثالثة التي كان يتـــرأسهـــا الكومنـــدار Colonna de Lecca مواقعهـــا عـــلى الطريق المؤدية إلى قرية لهـــري، وقـــد أســـند إليهـــا دور تعزيز ودعم الفرق الأخرى، أما المجموعـــة التي يقودها النقيب Hornecker، فقد توجهت غربا مـــن نقطـــة الـــتوقف، ثـــم انحرفت جنوبا، وواصلت سيرها على خطـــوات الخائنين عمر وأخيه ، إلى أن أشرفت على مخيم لهري، مـــن فـــوق مـــرتفع، وفـــي نفس الوقت تقدمت المجموعة الأولى والمجموعـــة الرابعة، تحت قيادة الكومندار Durmelat والقبطان Fages إلى الأمـــام، وفق الأوامر الصادرة من الكولونيل (أنظر الخرائط).

ومـــا كاد الخيط الأبيض من الفجر يبزغ ويرسل أشعته على دواويـــر المخيـــم (حوالي الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة) حتى كانت مجموعة Durmelat تعبر وادي شبوكة، وتصل إلى قريـــة لهري، في حيـــن كـــانت عنـــاصر مجموعة Hornecker تتقدم وهي تتسلق التلال المطلة على الطريق الرئيسية المؤدية إلى لهري.

وفـــي هـــذه الأثـــناء كـــان معظـــم سكان المخيم، لا زالوا مســـتغرقين في نومهم، وكان السكون يخيم على القرية لا يسمع إلا نباح الكلاب، الذي كان يكسر من حين لآخر هذا الهدوء الصباحي و الذي كان يزداد حدة بين الفينة و الفينة، وكأنه شعر بالخطر الذي يداهـــم المخيـــم (52)، ومن مسافة بعيدة بدا الدخان المتصاعد من الدواويـــر يعـــلو في السماء ، ويمتزج بالضباب الذي كان يغطي جبال زيان في نهاية هذا الخريف (53).

كـــان القـــائد موحـــا وحمو قد أقام هو واتباعه من الأولاد والأعمام والأحفاد بخيلهم وأبقارهم التي تعد بالمئات وبأغنامهم التي تعد بالآلاف (54)، في منطقة لهري لقضاء فصل الشتاء بعيدا عن قـــر الجـــبال، وكـــان معظم الزيانيين قد حذوا حذوه، ونزلوا من صياصـــيهم إلى منـــتجعات لهري هربا من الثلوج التي بدات تكسو جبالهم (55).

كـــان هـــذا المجتمع الرعوي يعيش عيشة بسيطة، كما كان الأمـــر قبل مجيء الفرنسيين، ورغم الحرب التي خاضتها المقاومة ضد المستعمر، والتي تركت أثرها على القبيلة بسبب استشهاد كثير مـــن أبنائها، فإنها استعادت عافيتها وحيويتها، واستعدادها لمواصلة الحرب.

كـــان المخيم – عندما داهمته القوات الفرنسية – يتكون من خمسة دواوير خيمة القائد الزياني، وخيام أتباعه المنصوبة على هضبة بين سهل تومليلين وبين الطريق المؤدية إلى قرية لقباب، أما الدواويـــر الأربعة الأخرى، فكانت موزعة على ضفتي نهر شبوكة الذي غدت مسالكه صعبة بسبب ارتفاع منسوب المياه.

غير أنه رغم هذا العائق الطبيعي لم يتراجع Laverdure بـــل أصـــرّ على تنفيذ الهجوم مهما كلف الأمر، وهكذا ، وحوالي الســـاعة السادسة والنصف كانت مجموعة Durmelat تعبر النهر ثـــم تبعتها مجموعة Fages ومعها الكولونيل، وفي ظرف وجيز، كـــانت المجموعتان على بعد مائتي متر من الخيام الأولى. وعلى الـــتو انتشرت عناصر المشاة التي يقودها الكومندار Durmelat رافعا سيفه، ليقذف بفرسانه وسط المخيم ، وفي نفس الوقت انقض الكُّـــوم والمخازنيـــة بدورهـــم عـــلى الخيام، وهاجموا على يمين الفرسان(56).

كـــانت المفاجـــأة كـــبيرة داخل المخيم الزياني عندما صبت المدفعيـــة قذائفهـــا على القرية، ونشرت فيها الرعب، حيث خرج الـــزيانيون مصـــعوقين ومذهوليـــن، لم يتمكنوا من أخذ أسلحتهم وامـــتطاء خيولهـــم (57)، وارتفع الصراخ والعويل من كل حدب وصوب. فقد داهمهم الجنود فجأة ، شاهرين مسدساتهم ورشاشاتهم

وأحدثـــوا بلبـــلة وهلعا كبيرا، وقد لخص القبطان سعيد كنون هذه البلبلة بقوله

" نفذ الهجوم حسب التعليمات ، وكانت مفاجأة العدو كبيرة، حيث استيقظ الزيانيون تحت وابل من نيران الرشاشات و المدفعية، وفروا مذعورين في جميع الإتجاهات ، تاركين لجنودنا متاعهم وثرواتهم (58)

واضـــح إذاً أن الهجــوم نجـــح تماما، وتشتت المعسكر الـــزياني شـــذرمذر، غيـــر أن الجيش المغيرلم ينجح في اختطاف زعيم المقاومة الذي كان مستهدفا. يقول أحد الضباط:

ما أن عبر الجيش الفرنسي واد كرو حتى غادر موحا وحمو ساحة القتال ، تاركا وراءه خيمته الرائعة التي تصدر منها التعليمات والأوامر لأتباعه (59).

لقـــد أدرك الـــزعيم الزياني – عندما رأى الغزاة يقتحمون المخيم ، ويتجهون صوب خيمته على خطوات قرني الشيطان، عمر وأخيـــه أن الهجـــوم الذي يقوده الكولونيل Laverdure قائد حامية خـــنيفرة ، إنمـــا يستهدفه شخصيا وتقول الرواية الشفاهية أنه نجا بأعجوبة، واستطاع – عندما أخبرته إحدى خادماته بقدوم المغيرين – أن يمتطي جواده بسرعة فائقة، بمساعدة ولديه باعدّي وبوعزة اللذين مـــا أن أحســـا بالخطر يهدد والدهما حتى أسرعا نحو مربط الخيل

ورفعـــا ه على صهوة جواده متجها نحو الجنوب. وقد حاولت كوكبة من فرسان العدو ملاحقته، لكن البطلين المذكورين تصديا لها ودافعا عــن شرف والدهما حتى اختفى في منعرجات هضبة مزكوشن، أما المصادر الفرنسية فإنها تعزو نجاة القائد إلى أمور أخرى منها

-أن Laverdure أصـــابته الدهشة عندما وجد نفسه وجها لوجـــه مـــع المقاومين، وهم يحاولون الدفاع عن أنفسهم، خلافا لما كـــان متوقعا ، الشيء الذي لم يمكنه من ترتيب وحداته حسب هذه المعطيات الجديدة

- أن الهجوم تم في واضحة النهار، ولم يتم مع بزوغ الفجر وبشكل مفاجيء كما كان مخططا له، وبذلك فقد طابع المباغثة.

-أن الغـــزاة لم يستطيعوا محاصرة المخيم من جميع الجهات لأنه كان يتكون من عدة دواوير متباعدة فيما بينها.

ومهما يكن، فإن هذه التبريرات لم تؤثر على الخطة الحربية الـــتي رسمها Laverdure ونفذها بعناية كبيرة، الشيء الذي جعل الـــزيانيين ، وبخاصــــة العجـــزة و الأطفال و النساء، يتعرضون لمجزرة مروعة ، لم يستطع مؤرخو الاستعمار إخفاءها. ورغم أننا لا نتوفر على أرقام تعطي فكرة حول المذبحة، ولا على إحصاءات مضـــبوطة، فـــإن الخســـائر في الأرواح والأضرار الجسيمة في الممتـــلكات كـــانت كبيرة . فلا شك أن إطلاق النار من كثب،على

سكان المخيم العزل ، الذين لازال معظمهم مستغرقا في نومه، وعلى غير هدى ،أحدث خسائر كبيرة وسط كل الذين لا يقدرون على الهرب. كتب أحمد المنصور يقول

أطلق الجيش شثابيب بنادقه النارية على الحلة بما فيها ،ورمتها رمية رجل واحد ،سقطت فيها النساء والأطفال فضلا عن الرجال الأبطال (60)

وأثناء التقتيل الذي زاد رعبا وهلعا في المخيم ، قام الكُوم بتجميع القطيع وتوجيهه إلى خنيفرة ، وقصد الخائنان عمر وأخوه المتعطشان للانتقام من خالهما خيمة القائد ، ودون ضياع الوقت، استوليا على اثنتين من نسائه ، كما استوليا على صندوقين من النقود ، وتراجعا نحو الخلف (61). ولم يقف المغيرون عند هذا الحد ، بل أضرموا النار في الخيمة حسدا من أنفسهم، وكذلك فعلوا بخيام الأعيان الزيانيين المجاورين للقائد، و لندع J. Le Prévost يصف لنا هذا النهب ، يقول:

لقد تم نهب جميع الخيام بدون شفقة ، كما تم إفراغها من النساء، وقد استغرق هذا النهب أكثر من ساعة، ونزل الفرسان عن دوابهم لحمل الغنائم عليها" (62)

إن ما يفسر السعار الذي بدأ به الهجوم والتصرف القاسي للمحتل ، ووحشيته وإهانته لكرامة الإنسان هو تلك النزعة الصليبية

الـــتي يحملها الفرنسي في أعماقه ، وإن المغاربة الذين عاشوا تلك الفـــترة يعرفون أن الاستعمار الفرنسي مقرون بالاستبداد والقسوة والكـــبرياء بســـبب بغضـــه للإسلام ودون أن نعود إلى القرون الوســـطى الـــتي تـــزعمت فيهـــا فرنسا الحروب الصليبية، نكتفي بالإشـــارة إلى أنهـــا اعتـــبرت الإسلام الجدار الوحيد الذي كان يحـــول بينها وبين استعباد الناس ، وقد زاد هذا العداء عندما ناداها راهبها Charles de Foucault في نهاية القرن التاسع عشـــر، بضـــرورة تنصـــير المسلمين في شمال أفريقيا، وقد استهوتها هذه الأطروحة، وبذلت في سبيلها جهودا مضنية، اعتقادا منها أن نشر المســـيحية في ربوع المغرب هو الكفيل بضمان السيطرة والبقاء، فظلت تضرب وتضرب للقضاء على الإسلام لأن الإسلام هو الذي يهدد وجودها.

إنـــنا، حيـــنما نؤكـــد عـــلى الجرائم التي اقترفها الاستعمار الفرنسي سواء في لهري أو غيره، إنما نريد فقط أن نرسم صورة قريبة لخطة الفرنسيين في محاولة تخلصهم من أعدائهم المسلمين. إن الـــذي كـــان يقـــلقهم بشدة هو تشبث هؤلاء الأمازيغ بالإسلام واســـتعدادهم للتضحية بأرواحهم في سبيل عقيدتهم خصوصا وأنها (أي فرنســـا) كـــانت تـــرى فيهم أقرب الناس إلى استيعاب ثقافتها وحضارتها .

بهــذا الاكتســاح العســكري الشامل و النهب المنظم، اعتقد Levardure لمــا انتصر تلك الساعة أنها النهاية بالنسبة لزيان، وأن المقاومة انهزمت وباد أهلها. وهذا شأن أهل الريب و الشك إذا حصــل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، ولكــن لنتســاءل هــل كان انسحاب موحا وحمو من القتال ساعة الاكتســاح فرارا من المعركة ؟ هل كان في إمكانه التصدي للغزاة لو بقي في المخيم ؟

4- معركة لهري الثانية والنصر المبين .

كان موحا وحمو رجلا واحدا ، أركان حربه أبناؤه وحفنة من شيوخ زيان، لم يتخرج أي منهم من المدارس العسكرية الأوروبية، ولكنهم كانوا يتميزون بشجاعة نادرة وحضور بديهة ، وتجاوب مع الأحداث. فقد درس المكان الذي ستشهده المعركة، وخطط تخطيطا محكما، استهدف جر الغزاة إلى المكان الذي يريده لمواجهتهم فيه، فتركهم يتوغلون داخل المخيم لحرمانهم من الإمدادات التي يمكن أن تــأتيهم من خنيفرة ، تماما كما فعل السلطان عبد الملك السعدي عندما استدرج جيش الإمبراطور البرتغالي دون سبستيان إلى داخل الــبلاد. ولمــا توغلوا جيدا في شعاب لهري وأوديتها، خرج من مخبئه في هضبة مزگوشن وعاد إلى ساحة القتال.

وقـــبل أن يقـــذف بالمجـــاهدين فـــي ميدان المعركة، انطلق الرقاصـــون يســـتنفرون القـــبائل الأطلســـية، وأشعلوا مواقيد على المرتفعات، هي عند هؤلاء الأمازيغ أشبه ما تكون بناقوس الخطر وبيانا بالحرب (63)، وأخذت طوائف المتطوعين – لمساعدة زيان فـــي القـــتال – تتوافد على لهري التي أحكم الفرنسيون من حولها الحصـــار. مـــتطوعون ، يقـــول عنهم سعيد كنون أنهم جاءوا من مختلف القبائل الأطلسية حتى اجتمع في لهري جم غفير (64).

لقد استنفر دوي المدافع معظم القبائل في الجبل ، ونزلت من كل حدب وصوب، نحو ساحة المعركة، وهكذا وفي ظرف ساعات قليـــلة وفـــد المجـــاهدون من وادي سرو القريب، ومن منحدرات هضـــبة مزكُوشن وتابويشت، و شرقي لهري، عبر أودية بوزقور وأروكُو(أنظر الخريطة)، كما وفد المتطوعون من اشقيرن، وأَيت اســـحاق الذين وصلوا إلى ساحة القتال عبر تاجْموت (65)، ومن أَيت سكُوكُو عبر أم الربيع، بل وحتى من أَيت مكُيلد البعيدة (66)، فضـــلا عن الزيانيين الذين لم يهنوا لما أصابهم من الغم بسبب ما تعرضـــوا لـــه من القتل، ولم يضعفوا حينما علاهم النصارى فوق الـــتلال، وقتـــلوا أطفـــالهم وشيوخهم ونساءهم، ولم يستكينوا أمام منجزرات عدوهم، بل صبروا، وقالوا و الله لنقاتلنّ حتى ننتصر أو نموت في سبيل الله.

إن الـــذي يفسر تدفق جماهير الفلاحين على لهري يوم 13 نونبر هو روح الجهاد في العقيدة الإسلامية ، إنه الإيمان و الإيمان وحـــده الذي خالط سويداء قلوبهم ، وتفوق على الأنظمة العسكرية. فقد كان الإسلام في المقاومة المسلحة المغربية الأداة الرئيسية، إن لــم نقــل الوحيــدة فــي التعبئة على المستويين الفكري والروحي لمواجهـــة كل أشكال وأنواع الاحتلال الأجنبي. فبإسم الإسلام وعن طــريقه وبواســطته استنفرت القبائل، واستنهضت الهمم، وتوالت التضــحيات، وســالت الدماء لتحرير الأرض الإسلامية من دنس المحتــلين والغاصــبين، وباسم الإسلام جاءت الجموع الغفيرة إلى لهــري لتعــلن لــلغزاة أنهــا تقف ضد التجزيء والتفكيك، وضد الاستلاب الثقافي والاغتراب اللغوي والحضاري.

هكــذا إذا لعــب الإســلام دوره في منازلة الأعداء ، وعاد المجــاهدون الــزيانيون إلى ساحة القتال ، وانضمت إليهم القبائل المجاورة وانطلق موحا وحمو في نضاله لا يكل ولا يمل، يحرض على الصمود ، وأخذت المعركة وجها آخر.

ففــي الوقت الذي كان فيه Laverdure ينظم أمر الانسحاب ظانــا أنه أدى المهمة عن آخرها، وبدأت الوحدات الأولى للجيش المغيــر تــرجع القهقــري، في هذا الوقت بالذات كانت مجموعة Durmelat قد حاصرها المقاومون انطلاقا من تلال ايمزّينتن، ولم

تـــتمكن من الاعتماد على مساندة مجموعة Fages ،التي أصبحت بدورها محاصرة من جميع الجهات.

بـــدأ رد فعل المقاومة عنيفا ، فقد هاجم رجالها كأسد ينقض على فريسته، وقاتلوا قتال الأبطال، وأطلقوا النيران على أعدائهم حيـــث تعرض سلاح فرسان العدو لخسائر كبيرة، واصبح عسيرا على المغيريـــن أن يتراجعوا رغم ما بذلته فرقـــة Colonna de Lecca لفك الحصار على مجموعتي Fages و Durmelat، كتب سعيد كنون يقول

ما أن أعلن الانسحاب حتى انقض زيان على قواتنا بغضـــــب شديد. وكانت مؤخرة الجيش التي فوجئت بهجوم عنيف قد تمكن منهـــا العدو وتعرضت في طرفة عين لخسائـــر فادحـــة" (68).

في هذه الأثناء كان ضغط المقاومين يزداد في كل دقيقة. فقد استولوا على رشاشات الجنود السنغاليين، وهاجموا ناحية المدفعية التي كانت تحصدهم حصد الهشيم منذ الصباح الباكر، وتمكنوا من تدميـــرها وقتل مستعمليها (69)، واستمر الحال على ذلك وحوالي العاشـــرة تبين للكولونيل أن معظم ضباطه قتلوا أو جرحوا، يقول ڭيوم:

كانت تنصب الطلقات النارية على الجيش من كل جانب، وقـــد جرح القبطـــان Hornecker ، فسلم القيادة ل FAGES

الذي جُــرِحَ بدوره ، فتولى الكومندار Colonna de Lecca القيــادة ، لكنــه أصيب هو أيضا برصاصة، فسقط جريحا" (70).

غيــر أن الــذي أظهر حالة الإنهزام لدى العدو هو خطاب الإســتغاثة الــذي بعــث بــه Laverdure إلى القبطان Croll ، المسؤول على حماية خنيفرة، يقول فيه

أسرعوا بسريتكم لاحتلال " تلال تادلة ، و أرسلوا وحداتكم

إن كــانت جاهزة ، فإن خلاصنا ونجاتنــا بأيديكــم (71)

ولكن قبل أن يصل هذا الخطاب إلى خنيفرة، كان جيش العدو قــد تاه في مجاهل البرية ، تلتقطه أسنة الفرسان على حد قول أحمد المنصوري (72).

ولــم تكــن المــرأة الزيانية لتغيب في مثل هذه الأحداث الجسام. فقد خرجت لتموين المقاتلين بالزاد وتوزيع الذخيرة ، تحت وابــل الرشاشــات (73)، وإذكــاء حماس المقاومين بترديد بعض المواويل عندما يشتد قصف العدو مثل

أثاث إرومين إعداون نربي ذا رسول الله دوياث غر ذاث ،

هاتُين ونايموثين كالجهاد إدا غرجنث إزايد العز إيايثماس (74)

ومعناه

اضربوا يا رجال أعداء الله ورسوله

تقدموا إلى الأمام، من مات مجاهدا

كانت الجنة مأواه، وزاد العز لإخوانه

بـــل والمشـــاركة مع الرجل جنبا إلى جنب، حيث كانت في بعــض الأحيان تأخذ مكانه في حالة استشهاده، كما كانت تهجو كل مـــن قيل لها إنه جبن أمام العدو، أو أحجم إحجاما عن القتال، ومن أمثله ذلك كانت تقول

الشجعان وحدهم يعرفون كيف يتحملون ويكابدون (75).

غيـــر أن دورهـــا الفعال، برز على الخصوص في معالجة الجـــرحى، فقـــد احـــتفظت لنا ذاكرة التاريخ باسماء نساء عديدات خاطـــرن بأنفســـهن مـــن أجـــل إغاثـــة المصابين أثناء المعركة ومساعدتهم. فقد أورد أحد المشاركين في هذه الواقعة وهو معمّي ولد الحاج حدو مايلي

أصبت بطلقة نارية في بطني .. سقطت منها أمعائي ... فما أن سقطـــت من أعلى الفرس حتى وجدت أمامي أختي، وهـــي تساعدني في إرجاع الأمعاء الخارجة. فحاولت إرجاعها بيدها بكل جهد فلم تستطع، فبينما هي على تلك الحال، إذا بأحد الجرحى الساقطين بمقربة منا، ينادي عليها نداء يهمسه من شدة الألم، حتى دنت منه، فقال لها، ارفعي رجليه، وادفعي الأمعاء بيدك الأخـــرى ترجع لمحلها... "(76)

المـــرأة الـــزيانية لا يشـــغلها عـــن الجهاد أي شغل شاغل، فـــالأرض المحتلة هو همها الأول والأخير، إنها في معركة لهري تظهر من خلال شخصية سامية نموذجا للانسان، فلا وجود للمرأة العواطـــف أولـــلمرأة التشـــيء، فابنة الحاج حدو المذكورة، شابة تستخدم شبابها وفنونها لغاية نبيلة هي الجهاد وتحرير الوطن، وهي بذلك تكون نموذجا للمرأة المسلمة المجاهدة.

لقـــد أحدث اختفاء الضباط من ميدان المعركة بلبلة وارتباكا فـــي صـــفوف العدو، وتعرض معظم الجيش للقتل، وحاولت فلوله الهرب من المعركة، فمنهم من اتجه غربا نحو وادي بوزقور بحثا عـــن ملاذ في أشجار الدفلى (77)، ومنهم من تشبث باذيال قافلة الجـــرحى، التي كانت تحاول العودة إلى خنيفرة، ولكن المجاهدين عرقلوا محاولة التراجع هذه، حوالي الساعة الثانية عشرة، ذلك أن في هذه الأثناء انضم إلى المعركة بعض أحفاد القائد الزياني، وهم موحـــا وعـــقّى ولد الحاج حدو، وأخوه بن عقى، الذين جاءوا من أروكْو (78)، على رأس متطوعي آيت شارظ ، وآيت خوي، وآيت بوهـــو، وقطعـــوا خط الرجعة على الفلول الفارة، وحطموها عن آخـــرها، فـــي قتال انتهى وجها لوجه، مات فيه LAVERDURE نفسه (79)، فكانت العاقبة للمتقين ولجند الله المسلمين.

لقد انهار الجيش الفرنسي وانهزم شر هزيمة حيث تحول إلى جــثث من القتلى والجرحى، منتشرة على أرض لهري الصغيرة، وإلى بقايـــا تحـــاول الفرار، والمقاومون في أثرهم يضيقون عليهم سبل النجاة. كتب G.Martinet مقالا قال فيه:

في بداية هذا القرن اشتهر موحا وحمو، زعيم زيان بالدفــــــاع عن حوزة الأطلس المتوسط، إن هذا المقاوم الجموح، كبد فرنسا أكبر كارثة عرفتها في فترة الاستعمار "(80).

وقال المرشال ليوطي في برقيته لحكومته.

لم يسبق لفرنسا في تاريخها العسكري أن منيت بمثل هذا التدمير في قوة هامة من قواتها، وخسرت مثل هذا العدد مـــن ضبـــاطها ، وأضاعت مثل هذا القدر الكبير من عتادها" (81)

وأما الجنرال كَيوم، فقد أحصى الخسائر وعلق عليها قائلا

من مجموع 1232 جندي و43 ضابطا التي كانت السرية تتـــكون منها قتل 33 ضابطا و 590 جنديا، وجرح 176 رجلا منهم 5 ضباط. فمـــن الثلاثة و الأربعين ضابطا الذين شاركوا في المعركة لم يســـلم إلا خمسة، كان من بينهم أربعة فرسان، ولم يسترجع من الجثـــث إلا أربعين جثة، حملت إلى خنيفرة.

وهكذا استولى المتمردون عـــلى جميع المدافع وجميع الرشاشـــات وعـــدد كبـــير مـــن البندقيـــات.

إن جيشنا لم تصبه قط - في إفريقيا الشمـــالية - فادحة كالتـــي أصـــابتـــه فـــي معـــركـــة لـــهـــري .(82)

ومن جهته قال بيشون محصيا الخسائر في الدواب

كانت الخسائر في الدواب كبيرة، فقد أحصينا 40 فرسا لسلاح المدفعية، من أصل فرنسي، و18 فرسا من أصل مغربي، وأربعة أخرى لضباط المشاة، و32 بغلا للحمل و26 أخرى تابعة لسلاح المدفعية (83)

ويقـــر كْيوم (84) إضافة إلى هذا أن زيان أخذوا على غرة تامة، لم يكونوا مستعدين من الناحية النفسية، وان الجانب الفرنسي هـــو الـــذي "**غدر بنقضه لهدنة ضمنية كانت سارية المفعول منذ بضعة أيام** "وأما خسائر المقاومة فقد بلغت حسب جان بيشون 400 رجـــل كـــانوا قد استشهدوا في بداية المعركة عندما قامت القوات الفرنسية بحصار المخيم (85).

ومهما يكن، فإن المقاومين انتصروا انتصارا باهرا، ولكن هل كان لهذا الانتصار أصداء بعيدة أم أن عواقبه لم تتجاوز زيان؟

لا نتوفرعلى المعطيات الكافية لتحليل موقف المقاومة المغربية، ولذلك سنحاول، اعتمادا على بعض الأخبار، إبراز الموقف الذي اتخذته بعض القبائل المجاهدة ، دون تفصيل كبير.

يــبدو أن خــبر الانتصار انتشر في المغرب كما ينتشر نثار الــبارود فقــد انطلق من أسواق جبال الأطلس التي عرض فيها موحا وحمو الغنائم و التي وجه منها نداءا إلى المدفعيين والجنود المغاربة الذين رفضوا العمل مع الجيش المحتل للالتحاق به، وامتد الخبر إلى ملوية السفلى وإلى تافيلالت، و إلى حوز مراكش مرورا بالمغــرب الأوسط، و تداولته الألسن حتى علمه سكان بوذنيب في أقصى شرق المغرب، في نفس اليوم الذي جرت فيه المعركة (86). وكـــان وقعه شديدا على القبائل حيث أحدث غبطة وارتياحا، وأعاد مجــددا الأمــل فــي تحرير البلاد من قبضة الاستعمار، ويطلعنا J.Cagne فـــي كـــتابه Nation et Nationalisme au Maroc على جانب من الإحساس الذي عم المغرب حيث أشار إلى أن

انتصار لهري قوبل بفرح كبير في المغرب كله،

وجدد الحماس لدى أعداء التدخل الفرنسي (87).

ويضيف L.Barthou

" **في المغرب انتشر خبر لهري واستغله المغاربة بحيث أحدث أضرارا للحماية، وأعطى لموحـــا وحمو ثقـــة كبيرة، بينما خسرت فرنسا هيبتها ونفوذهـــا (88).**

لقــد خلق الانتصار الذي أحرزه زيان ديناميكية في المجتمع المغربي وبخاصة في البوادي التي لا زالت تقاوم، كما خلق مناخا

ثوريـــا كاد أن يعصف بالاستعمار الفرنسي، وذلك لأن المعركة لم تقــف أبعادهـــا عند الخسائر المادية والبشرية التي تكبد تها القوات الفرنسية، بل تعدت ذلك لتوجيه ضربة قاضية للجهاز الاستعماري، حيـــث شـــكلت دحضا نهائيا لهذه النظريات الاستعمارية المغرضة الــتي تصـــور المقاومة كعمل من أعمال اللصوص وقطاع الطرق والمنشقين.

وهكـــذا جاء رد فعل المقاومة المغربية سريعا، فقد أضرمت واقعة لهري الحرب في عدة جهات من المغرب وتأجج الجهاد حتى أصبح الاستعمار على حافة بركان (89).

- ففي منطقة تازة التي دوى فيها صدى لهري عميقا ، قامت قـــبائل التســـول والبرانس وغياثة بسلسلة من الهجمات على مواقع الجيش الفرنسي وعلى طوابير التموين (90)، وامتد هذا الدوي إلى قـــبائل الريف التي أوفدت مبعوثين إلى زيان ليعلنوا للقائد دعمهم، ويطـــلعوه عـــلى أحداث أوروبا، وخاصة انهزام فرنسا أمام ألمانيا الذي اعتبروه مؤشرا على الجلاء من المغرب (91).

- وفي منطقة فاس، بلغ الغليان أوجه في قبائل اَيت يوسي، الـــتي أجمعـــت أمرها على ربط الاتصال مع زيان للقيام بعمـــل مشترك (92)

- وفـــي الجـــنوب تلقت قبائل أَيت حديدو وأَيت عطا، وأيت مـــرغاد، وأَيت عتاب نبأ الانتصار بارتياح كبير، وعقدت عزمها عـــلى مواصــــلة الحـــرب ضـــد الاستعمار كمخرج وحيد لتحرير الـــبلاد(93)، وكـــانت الرسائل التي بعث بها موحا وحمو إلى هذه القبائل كلها تحريضا على الدفاع عن حوزة الإسلام وحماية الوطن، فقامت الناس متأثرة بتلك المكاتب. يدل على ذلك زحف المقاومين نحـــو مـــراكش رغم تدخل الباشا التهامي الأكلاوي، ولايستعبد أن يكون هذا الزحف باشارة من الشيخ أحمد الهيبة الذي تربطه علاقة صـــداقة مـــع الـــزعيم الزياني، والذي أطلق في هذا الوقت بالذات صرخة الجهاد من مقره بكردوس، مهددا باكتساح بلاد سوس (94).

- وفـــي المغرب الأوسط عاشت قبائل زعير وزمور حالة التحفز، واعتبرت انتصار لهري بمثابة محطة رئيسية على درب التحرير (95)

- ومـــن أعالي جبال أَيت سخمان، لبّى سيدي علي أمهاوش نـــداء القـــائد ، ووضع تحت تصرفه مقاتلي القبائل المنضوية تحت لوائـــه ، ثـــم طـــلب من القائد موحا وسعيد الويراوي أن ينضم إلى حركة الجهاد، وكانت خسائر الكولونيل مانجان الفادحة التي مني بها في شعاب القصيبة قد شجعته في التأثير على قبائله (96).

– وفـــي بـــلاد زيان كسرت المعركة طوق الجيش الفرنسي الـــذي فرضـــه على القبائل منذ احتلال خنيفرة، حيث حرمها من الانـــتجاع ، وأصبحت طريق الأزغار مفتوحة، وقد جاء في كلام ســعيد كْنون ماذهبنا إليه، حيث ذكر في كتابه السالف الذكر (97) أن عملية الإنتجاع أعيد تنظيمها بعد معركة لهري، ووفق معطيات جديدة. فتحت تأثير قائد المقاومة، قررت الجماعة أن تتم عملية الإنـــتجاع على شكل ثلاث مجموعات كبيرة وقوية بحيث تستطيع كـــل مجموعـــة أن تدافع عن نفسها بوسائلها الخاصة، في حالة الإعتداء عليها من قبل المحتلين.

- كـــانت المجموعـــة الأولى تتكون من اَيت بومزوغ، واَيت بومزيل واَيت عمو عيسى، واَيت خوي، واَيت بويشي، واَيت علا، واَيـــت معـــي، وكـــان عليها أن تعبر وادي أم الربيع نحو الضفة الإطلنـــتكية من قنطرة أساكا شمال قرية البرج، وتنتجع في اتجاه كْلموس

- وتـــتكون المجموعـــة الثانية من اَيت شارظ، واَيت بوهو، واَيت لحسن، واَيت حدو وحمو، وإيهبارن، وإمزناثن، واَيت يعقوب أوعيســـى، وتقـــرر أن تمـــر هذه المجموعة من قنطرة تاجموت، وتنتشر في منطقة بورار وسيدي عمرو.

- أما المجموعة الثالثة التي تضم ايت اسحاق، وايت بوحدو، وآيــت حمـــاد أوعيسى، فينبغي عليها أن تنتجع من قنطرة خلادة، وتذهـــب بقطعانهـــا إلى مراعي جبل الحديد، بمحاذاة مع قبائل أم البخث، وآيت ويرا.

وهكذا عادت القبائل إلى الإنتجاع، وهي لاتبالي بشيء، كما جاء على لسان الجنرال كيوم حيث قال

" كان المتمردون يتقدمون في كل شتاء، وحتى سنة 1920، أكثر في مناطق الأزغار، ويحاصرون مراكز خنيفرة وسيدي لامين وكلموس (98).

ويضيف ليوطي

حقا إن قضية لهري غيرت في هذا الوقت بالذات - الوضعية وبعثت الثقة و الأمل في نفوس المتمردين ... وقد استغلوها كما كنا نتوقع (99)

وهكذا تبين للفرنسيين، بعد انهزامهم، أن الهدف الذي جاءوا من أجله بعيد المنال، فالاستيلاء على زيان أصبحت عملية عسكرية تتطـــلب وقـــتا طويلا وأسلحة فتاكة، ولن يتأتى هذا إلا بعد الحرب الأوروبية. هذا بالنسبة للمغرب، فماذا عن الحماية الفرنسية ؟.

مـــن التقارير الفرنسية (100)، يتأكد أن حدث لهري قوبل بموجة من الذهول، حيث تساءلت الأوساط الاستعمارية كيف يمكن

لخصـــم يـــتكون من مجرد عصابات من الفلاحين – ليس لها من السلاح إلا بعض البنادق، ولا تكاد تطلق النار حتى تلوذ بالفرار – أن تنتصـــر على أقوى جيش في العالم. ولإيجاد مخرج للهزيمة، تـــذرع المســـؤولون بالإندفاع الطائش لقائد الجيش، الكولونيل لا فيردور، الذي آثَر المصلحة الشخصية على المصلحة العامة (101).

وكيفمـــا كـــانت التـــبريرات، فإن الهزيمة زعزت، بضربة واحـــدة، دعائم الاستعمار بالمغرب، من حيث ضخامة الخسائر في المعدات والأرواح، علق ليوطي بأن

الخسارة المادية لم يسبق لها مثيل، وليس في تاريـــخ فرنسا الاستعماري مثل هذا التدمير في قوة هامة، وخسارة مثل هذا القدر (102)

ففـــي الميدان السياسي وجدت إدارة الحماية نفسها أمام ثورة عارمـــة تهـــدد الوجود الفرنسي بالمغرب كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وكان ليوطي يخشى، نظرا لتقليص أعداد الجنود في المراكز بسبب الحرب الأوروبية، من اندلاع حركة كاسحة للمقاومة الوطنية شـــبيهة بتلك التي اندلعت غداة توقيع عقد الحماية (1912)، فتنقلب الوضـــعية رأســـا على عقب، حيث تنتشر الشرارة، ليس فقط في المـــناطق الخاضعة، ولكن قد تمتد أيضا إلى المستعمرات الأخرى فـــي شـــمال أفريقيا ، والحال أن إدارة الحماية ليست لها إمكانات

لتقديم الدعم وإرسال تعزيزات لايقاف هجوم المقاومة، فيصبح نظام الحمايـــة فـــي خطـــر، وربما قد يؤدي ذلك إلى سقوطه (103).

ويتحدث المسؤول عن غزو زيان وهو الجنرال هنريس، عن حركة الجهاد الذي عم المغرب، فيقول:

كانت هزيمة لهري ، خطيرة جدا فقد أوقدت نار القتال، وكنا فجأة أمام حريق يهدد الوجود الفرنسي بكامله (104).

ويضيف J. D'Esme

" **لقد أعدنا لموحا وحمو الشهرة التي بدا يفقدها كل يوم أكثر فأكثر، وأخّرنا غزو زيان بسبعـــة أعوام، كانـــت كلهـــا خسائر باهضة الثمـــن بالنسبة لنـــا (105).**

واضـــح ممـــا سبق أن هزيمة لهري كانت شديدة الوقع على الحمايـــة، ولكـــن هل أدى ذلك إلى التفكير في الإنسحاب من بلاد زيان ؟

- يمكن أن نجيب على السؤال بنعم إذا اعتبرنا مايلي

1 - إن الحرب الأوروبية وضعت فرنسا في موقف سيء بحيث لا قدرة لها على توجيه مدد إلى المغرب.

2- إن هـــزيمة لهـــري تزامنت مع هجوم الألمان على شمال شرقي فرنسا.

3 – إن دخـــول تركيا في الحرب إلى جانب ألمانيا ضد فرنســـا، وإعلان الجهاد في العالم الإسلامي من قبل الإمبراطور العـــثماني، أحدثا ارتياحا كبيرا في المغرب، لأن تركيا كانت تمثل فـــي نظـــر المغاربة الدولة الإسلامية الوحيدة التي لا تزال تحتفظ باستقلالها.

4- إن هـــزيمة فرنسا في معركة غليبولي (1915) أعطى لتركيا مكانة عالية في الأوساط المغربية، وبدأ المغاربة يدركون بأن هناك دولة إسلامية تستطيع أن تجابه قوة الغرب، فلماذا لا نكون نحن كذلك (106).

انطلاقـــا ممـــا ذكر، يمكن القول إن ليوطي كان قد فكر في وقت، في مسألة الإنسحاب من بلاد زيان، إذا لم تكن حامية خنيفرة قادرة على صد هجمات المقاومة، وهذا ما أشار إليه L.Barthou عندما قال

الواقع أن ليوطي كان – في قرارة نفسه – ينوي الإنسحاب من جبهة زيان – خنيفرة – تادلة" (107)

غيـــر أن ليوطـــي تراجع عن رأيه، وحاول تطويق عاصفة لهـــري من منطلق الحفاظ على المغرب لاعتقاده انه ، لو أقدم على الإنســـحاب مـــن جـــبهة زيان لضاع المغرب، لأن هذا الإنسحاب ســـيتمخض عنه – حسب زعمه – نتائج خطيرة. ذلك أن المقاومة

ستهاجم، وتجبر القوات المنسحبة أن تحارب متراجعة مما سينهكها، وسيبدو حينئذ من الصعب حتى الإحتفاظ بالساحل، بل أكثر من ذلك سـيترك ما يجري في المغرب أثره في الجزائر (108). وبدلا من هـذا، كانت خطة ليوطي تقوم على دعم الوجود الفرنسي في بلاد زيان بوسائل ثلاث:

-**<u>الوسيلة الأولى</u>** وقد اتبعها الإسبان في الريف، وهي التي قـامت على إرسال وحدات عسكرية. فبعد بضعة أيام من الهزيمة تحـرك الفرنسـيون إلى موقـع لهـري بعدما جاءتهم الإمدادات والنجدات من مكناس وتادلة. وقد بلغ تعداد قواتهم هذه المرة 2500 جندي ، يقودها الجنرال هنريس، ويساعده الكولونيل – GARNIER DUPLESSIS، قائد حامية تادلة، وتعززهم قوة جوية، أي ضعف عـدد قواتهم في الحملة الأولى. جاءت هذه القوات لا للأشتباك من جديد مع زيان، ولكن لتخويفهم وترهيبهم.

-**<u>وتعـتمد الوسيلة الثانية</u>** على التعتيم الإعلامي، والتحريف الصحفي، وهي نوع من العنف والعدوان أيضا. فقد حرص ليوطي أشـد مـا يكون الحرص، على إحاطة ما خلفته معركة لهري من خسـائر بكل ما يمكن من الكتمان. ففي برقية (109) له طلب من حكومته ألا ترى في الهزيمة سوى عثرة في مسيرة الغزو، وبالتالي واقعـة من الوقائع التي يمكن أن يتعرض لها الجيش في أي مكان

من الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، كما طلب منها أن تقلل من أهميــتها على صفحات الإعلام، وكأن فرنسا لم تخض حربا. وقد نجــح ليوطـــي بفعــل انشغال الرأي العام الفرنسي بالمعارك ضد ألمانيا، بحيث أغرقت نتائج لهري في صلصلة السلاح، ويقول L. Barthou:

" في فرنسا ، وفي غمرة القتال، وتحت يقظة الرقابة لم يكن لقضية لهري صدى يذكر "(110)

-<u>أمــا الوســيلة الثالـــثة</u>، فترتكز على إخفاء الحقائق على المغاربة. فقد عمل ليوطي كذلك على تلطيف وقع الهزيمة، لأن أمر الإعــلام بها – أو السكوت عنها – كان كله بيده، وأول شيء قام به هــو تجــنيد شبكة من الرقاصين، كانوا يتنقلون من سوق إلى سوق ومــن قبيــلة إلى قبيــلة، ويجوبــون البلاد طولا وعرضا مشوهين الأحــداث تشويها، ومشككين في انتصار زيان (111)، وثانيا أطلق لضــباط المراكــز العــنان لتحريف الأحداث وتزييفها، فعمدوا إلى إشــاعة سلسلة من الأكاذيب المتعمدة، كانوا يهدفون من ورائها إلى بث الغموض و الحيرة في النفوس وبالتالي إحداث البلبلة حتى تختلط الأمور في أذهان الناس (112). ولسنا بحاجة إلى بذل الجهد لإ براز هــذه الحقيقــة ، فقد كفانا الكولونيل Simon ، مدير الإستخبارات، توضيحا إذ كتب يقول

يتعين عليكم العمل على\الحد من انفعال الأهالي، وإخماد تلك الموجة من الحماس الجنوني بإشاعة الخسائر الفادحة التي تكبدها زيان والشلوح (700 قتيل) كما يتعين عليكم إفشاء التدابيـــر التي اتخذناهـــا للانتقـــام منهـــم (113).

وهكذا جاءت الأخبار حول لهري متناقضة من هذه المنطقة إلى تلك، ولم تثر إلا اهتماما قليلا، لأن القبائل وخاصة البعيدة منها مـــن ســـاحة القتال، أذهلتها النتائج لفرط الخسائر الفرنسية التي لا مـــثيل لها، فبدت لها الإخبار الواردة من زيان غير مقبولة، فبقيت تحـــت عقدة الهزيمة، بل هناك من بحث عن سبل السلم إن لم نقل الوفاق مع المحتلين.

خاتمة:

يعتبر سحق القوات الفرنسية في معركة لهري، يوم 13 نونبر 1914، تاريخا لواقعة كبرى، هزت دعائم الاستعمار الفرنسي من أقصاه إلى أقصاه، وخلقت له كابوسا حقيقيا، كان من الممكن إستثماره لايجاد ارتباط بين قادة المقاومة الوطنية، و القيام بنشاط عام ومركز في كل الجهات من البلاد

غير أن هذا الإنتصار بقي بدون غد، فرغم الغنائم التي عرضها موحا وحمو في أسواق الجبال بين أم الربيع والملوية، ورغم النداء الذي وجهه للجنود المغاربة الرافضين الخدمة مع العدو ، ورغم المكاتب التي بعث بها إلى قادة المقاومة، كل ذلك لم يجد استجابة، وحتى الدعاية والتحريض الألماني، ودخول تركيا الحرب، وصرخة الجهاد التي أطلقها السلطان العثماني من استانبول، و الذي كان يهدف من ورائها إلى تنسيق جهود المقاومة المغربية للقيام بهجوم كاسح، يواكب هجوم الألمان على باريس، لم ينجح بتركيز عمل المقاومة والتعاون بصورة فعالة

صحيح أن حدث لهري هز الوجدان الديني والوطني، ودفع المجاهدين في مختلف مناطق البلاد إلى مواصلة الهجمات على مواقع جيش الاحتلال، في محاولة لاستغلال مصاعب الفرنسيين.

ولكــن المقاومة المغربية بقيت انفرادية، ولم ترق أبدا إلى مستوى الأحداث ، وبالتالي لم تغير معركة لهري شيئا من وضعية المناطق المهدئة "، ولم تتوقف محاولات التغلغل الاستعماري في البلاد.

هــذا بالنسبة للمغرب، أما بالنسبة لزيان، فقد غنمت المقاومة فــي موقعة لهري 700 بندقية، وجميع المدافع، وجميع الرشاشات وذخيــرة كــبيرة العدد، وقافلة من البغال التي استعملتها الوحدات الفرنسية في الهجوم، كما غنمت جميع الدواب الأخــرى، "زودتها" فرنســا في هذه المعركة بكل ما تحتاج إليه لتعويض نقصها الكبير فــي الأسلحة و الذخيرة، بل زودتها بما يكفل لها تنظيم "جيش" ذي عتاد وموارد لم تكن تحلم بها، هذا بالإضافة إلى ما بعثته المعركة فــي نفوسهم من الروح المعنوية التي يذكيها النصر ويبعثها اليقين بالظفر.

غير أن موحا وحمو الذي بهث الفرنسيون لمقاومته الشديدة، لم يستثمر هذا الإنتصار، ويسترجع عاصمته خنيفرة، ويستول على كميات كبيرة من العتاد والمؤن المخزونة فيها، لأن استرداد المدنية كــان هــو الكفيــل ليبرهن للرأي العام المغربي المريب – نظرا لوقوعــه تحــت تأثير الدعاية الاستعمارية وخداعها – أن انتصار لهــري لا جــدال فيه، ولعله هو الكفيل أيضا لإعادة محاولة وحدة

المقاومة الوطنية بعد أن انفرط عقدها منذ بداية الحماية عندما انهزم الشيخ أحمد الهيبة في معركة سيدي بوعثمان

ويبدو أن موحا حمو لم تكن لديه رؤية واضحة واستراتيجية شاملة بما يجري على الساحة المغربية فأحرى الساحة العالمية، وقد يعزى ذلك إلى أمرين الأول أنه لم يكن يطلع على أحداث العالم ولا يقرأ الصحف رغم أنه كان يتوصل بها بواسطة البريد الألماني، ولا يعلم أي شيء عن الثورات مثل ثورة 1789، ومثل بطولات الليبيين وما حققه عمر المختار إلخ. الثاني أن العامل الجغرافي لعب دورا في عزلته، فإذا جاز لنا أن نقارن بينه وبين بطل الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي استفادت مقاومته من محاذاتها للبحر الأبيض المتوسط، -صلة وصل بين المغرب من جهة وأوروبا والشرق من جهة أخرى – فإن حرب الأطلس المتوسط ضد الاستعمار ظلت مغمورة وشبه منسية، وهكذا بقي موحا وحمو سجين فكرته القديمة التي مفادها أن الفرنسيين سوف ينسحبون من المغرب بعد انتصار ألمانيا على فرنسا.

ومع ذلك، فقد قاوم وعبأ وجاهد ، ولقن الفرنسيين درسا من الدروس التاريخية الكبرى، وأسمع صوت زيان الذين اتخذتهم فرنسا"مخبرا انتروبولوجيا ل " سياسها البربرية"، ووقف صامدا أمام محاولة الهيمنة الشاملة التي كانت لا تعني فقط السيطرة على

الأرض، بـــل كـــانت تعني أيضا نشر ديانة المستعمر ولغته، تحت ضغط الكنيسة و المغامرين العسكريين ذوي النزعة الصليبية، وهذه المعـــركة، وإن لم تنته إلى لم شتات المقاومة وتوحيدها فقد هيأت الجو في آَخرين، وبعثت فيهم شعورا استفاد منه الوطنيون فيما بعد.

هوامش القسم الثاني

1- Lyautey à sa Soeur , in choix de lettres (1882-1919) présentées par le Lieutenant colonel Pontiers d'Amécourt, A. colin , 1947 , p 310.

2- J.Le Prévost , op , cit ,pp 150-152.

3- أحمد المنصوري ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 99.

4- نفسه

5- Général Catroux,Lyautey le marocain , Hachette , 1952 , p 63.

6- Rapport n°263 CMC, Lyautey à Guerre, affaire de khenifra Rabat,16 décembre 1914 A.M.G.

7 – نفسه

8- Le Réverend , op , cit , p 273.

9- Préface du général Henrys , in EL Herri op , cit

10- Général Guillaume , op , cit , pp 141-143, voir aussi J. le Prévost, op , cit , p 153.

11- نفسه ص 148.

12- نفسه.

13- Rapport n° 263, op .cit .

14- نفسه.

15- نفسه.

16- J.Le Prévost , op , cit ,p 158.

17- نفسه

18- نفسه ، ص157.

19- نفسه ، ص 161.

20 – Général Guillaume , op , cit , p 159.

21- سعيد كنون ، المصدر السابق ، ص، 155.

22 - J. le.Prévost , op , cit , p 152.

23 - نفسه 153.

24- Gl . guillaume , op , cit , p . 160 voir aussi Jean Pichon , op , cit , pp. 39 à 42.

25- نفسه

26- نفسه ، ص 93.

27- M.Le Glay Les sentiers Op. cit , p 12.

28- تحـدث المسـنون والأشـياخ أن هـؤلاء الشناكطية ينحدرون من جيش البخاري الذي كان مرابطا، أيام السلطان مولاي إسماعيل، في موقع أدخسان، وهـناك مـن يـزعم أنهم من شذاذ الآفاق ، جاءوا من القبائل المجاورة بعد اقترافهم جرائم ، فاستجاروا القائد، فأجارهم أنظر كذلك J.Le Prévost , op , cit , p 114.

29- المصدر السابق ص: 12.

30- المصدر السابق، ص: 121.

31- المصدر السابق، ص، 157.

32- المصدر السابق، ص 222.

33- نفسه ، ص 91.

34- P Belot , trente ans de baroud , B.Artaud , Paris 1945 p .120.

35- المصدر السابق ، ص، 131.

36- أحمد المنصوري ، ج 1 ، ص 102-103.

37- Voir: G.Surdon , institutions et coutumes des Berbères du Maghreb , éd . internationales , Tanger, 1936 , p 155.

38-J.Le Prévost , op .cit , p 56.

39-CH. De Foucault, Reconnaissance au Maroc (1883-1884) Challamel , 1888 , p , 45.

40 - سعيد كنون، المصدر السابق، ص41.

41- M.Le Glay , les sentiers ...op .cit , pp .99.100.

42- المصدر السابق ، ص، 349.

43- G .Maxwell El Glaoui , dernier seigneur de l'Atlas (1893-1956) , traduit de langlais par Jacques Papy , Fayard 1966 , p .124.

44- أحمد المنصوري مصدر سابق ، ج 1 ، ص6.

45- نفسه ، ص 4.

46- الــتقي العلوي، أصول المغاربة ، القسم البربري، اتحادية آيت يدراسن، مجلة البحث العلمي يناير / أبريل 1975، عــدد 24، ص 78-81.

47- نقــلا عــن عمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية ، بيروت 1986 ، ص، 148.

48- كــتب M. Le Glay في مقال بعنوان L'école française ما يلي "يجــب أن يحــذف تعليم الديانة الإسلامية و اللغة العربية من مدارس البربر، وان تكــتب اللهجات البربرية بحروف لا تينية أنظر Renseignements coloniaux, 1916.

49- أحمد المنصوري المصدر السابق ، ج 2 ، ص 5.

50 - J. Le Prévost , op , cit , p 157.

51- ينــبع هذا النهر من ثنايا فجاج جبل أقلبوس ومريغ في قبائل آيت شارظ وآيت عمو عيسى ، شرقي خنيفرة أنظر الخريطة.

52- جان بيشون ، المصدر السابق ، ص72.

53- نفسه

54- J.Le Prévost , op , cit , p 157.

55- نفسه.

56- نفسه ، ص165.

57- جان بيشون ، المصدر السابق ، ص 93.

58- المصدر السابق ، ص95.

59- J. Le Prévost , op,cit, p 168.

60- المصدر السابق ، ج 2 ، ص 100.

61- جان بيشون ، المصدر السابق ، ص 100.

62- المصدر السابق ، ص، 164.

63- J. Le Prévost , op ,cit , p 164.

64- المصدر السابق ، ص220.

65- جان بيشون ، م.س.ص ، 111-112.

66- سعيد كنون ، م.س.ص 162.

67- جنرال كيوم ، م.س.ص.162.

68- المصدر السابق ، ص220.

69- جان بيشون ، م.س.ص119.

70- المصدر السابق ، ص161.

71-انظر جان بيشون ، ص.134.

72- المصدر السابق ،ج2 ، ص 101.

73- نقـــلا عن ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، ص 103.

74- الرواية الشفاهية.

75- G. Bernié , op , cit , p 68.

76- أحمد المنصوري ، م.س.ج 2 ، ص 102.

77- سعيد كنون ، م.س.ص 222.

78- أحمد المنصوري ، م. س. ج2 ، ص، 102.

79- سعيد كنون ، م. س. ص، 222.

80- G .Martinet Moha ou Hamou et la bataille d'El Herri , le matin du sahara1988.

81- المصدر السابق ،ص 166.

82- المصدر السابق ، 153.

83- المصدر السابق ، ص163.

84- المصدر السابق ، ص167.

85- J. Pichon , op .cit , p 120

86- نفسه

87- J.Cagne Nation et Nationalisme au Maroc , Rabat 1988, p , 207.
88- L . Barthou , Lyautey et le Maroc , éd , du petit parisien , Paris 1930 , p , 207.
89-Lyautey L'africain , op , cit ,p 300.

90- نفسه ، ص 315.

91- التقرير رقم 263، م.س.

92- Telegramme n° 433 c , commandant de la région de Fés à Lyautey Fés , 17 novembre 1914 , carton 26 A.A.E.

93- Telegramme n°971 , Lyautey à A.A E, Rabat , 21 novembre 1914 , carton 26 A.A.E.

94- نفسه

95- Lettre du colonel Simon, directeur du service des renseignements à Lyautey ,Rabat 16 novembre 1914 , carton 26 , A.A.E.
96- Télégramme n°556 , commanndant du territoire de Tadla à commandant région de Meknés, Tadla 17 novembre 1914, carton 26 A.A.E.

97- المصدر السابق ، ص 227.

98- Gl. Guillaume , op cit , p 160

99- Lyautey L'african , t 2 p 300

100- نقلا عن جان بيشون ، م، س، المقدمة.

101- Lyautey l'africain , op cit , p .300.

102- نفسه

103-Général Catroux , Lyautey le marocain op , cit.p65. 310

104- نقلا عن جان بيشون ، مصدر سابق ، المقدمة.

105- المصدر السابق ، ص207.

106-Lyautey l' africain , op , cit t 3 ,p 16.610

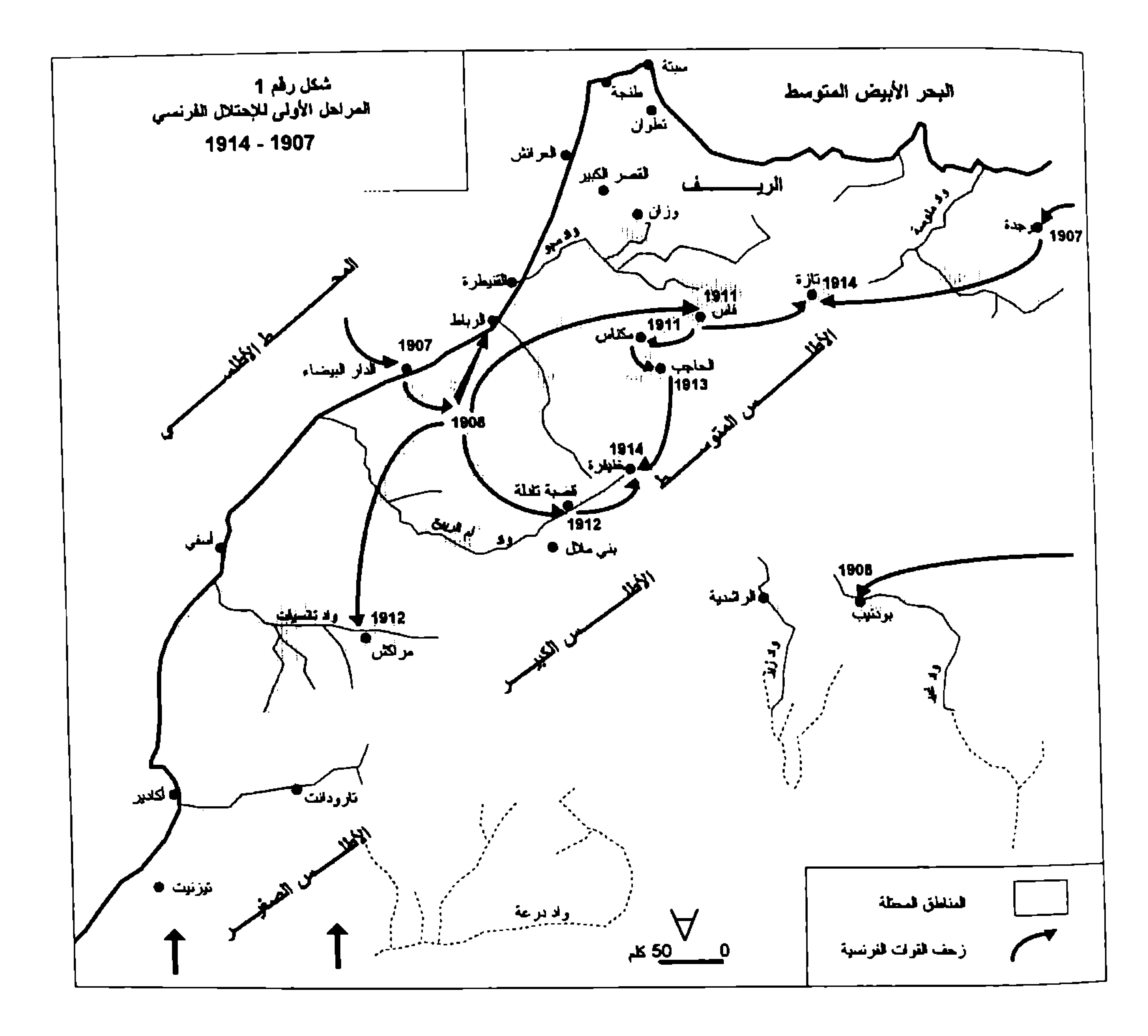
107- المصدر السابق ، ص 69.

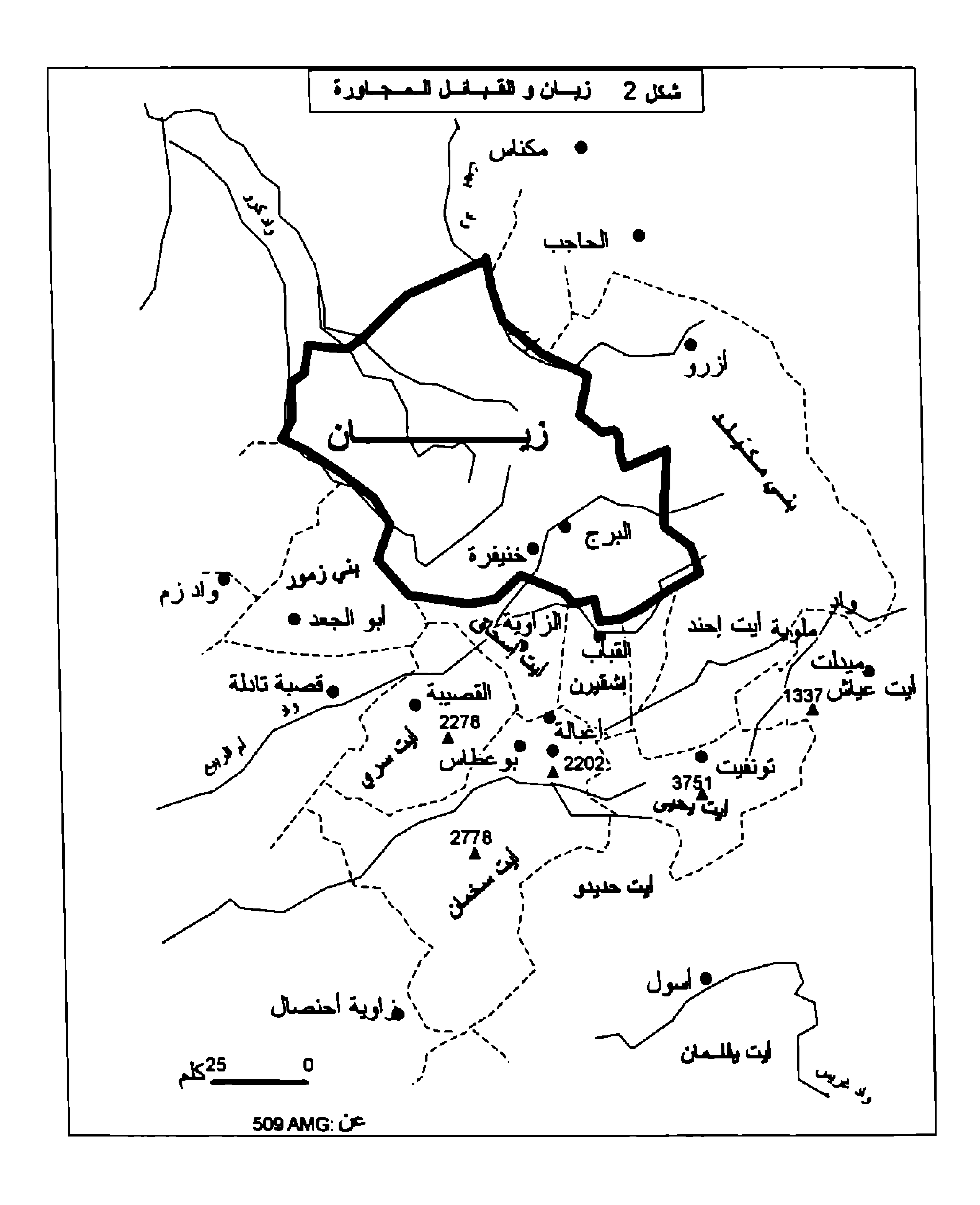
108- Lyautey l'africain , op , cit , t 2 p 16.
109- Télégramme C.M.C, Lyautey à Consul de France à Tanger , casablanca , 17 novembre 1914 , carton 2b , A.A.E.

110- المصدر السابق ، ص 68.

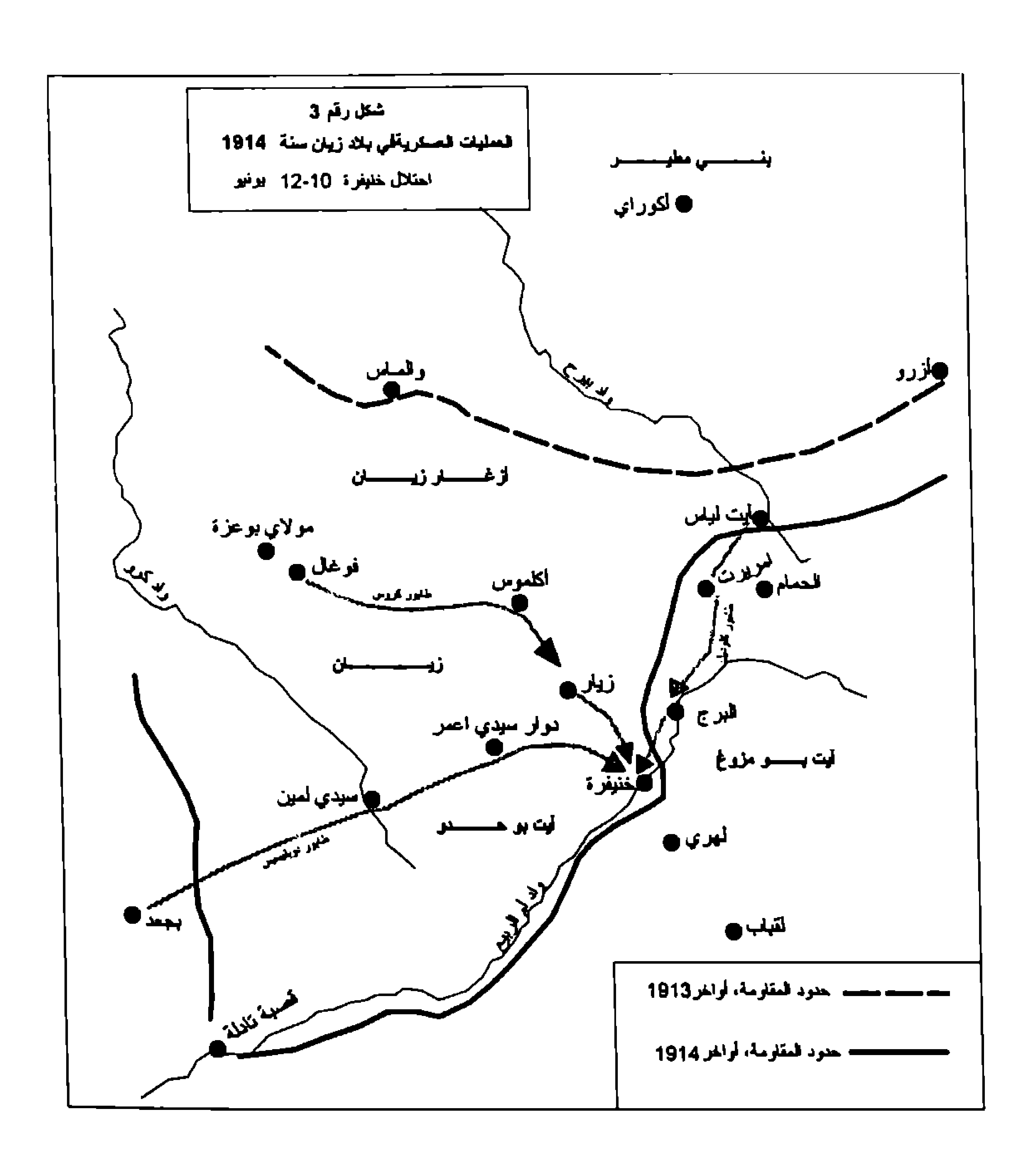
111- Lyautey L'africain t1 op cit p 301. 112-Rapport mensuel du protectorat , 1914 , p 7.

113- رسالة الكولونيل Simon ، مصدر سابق.

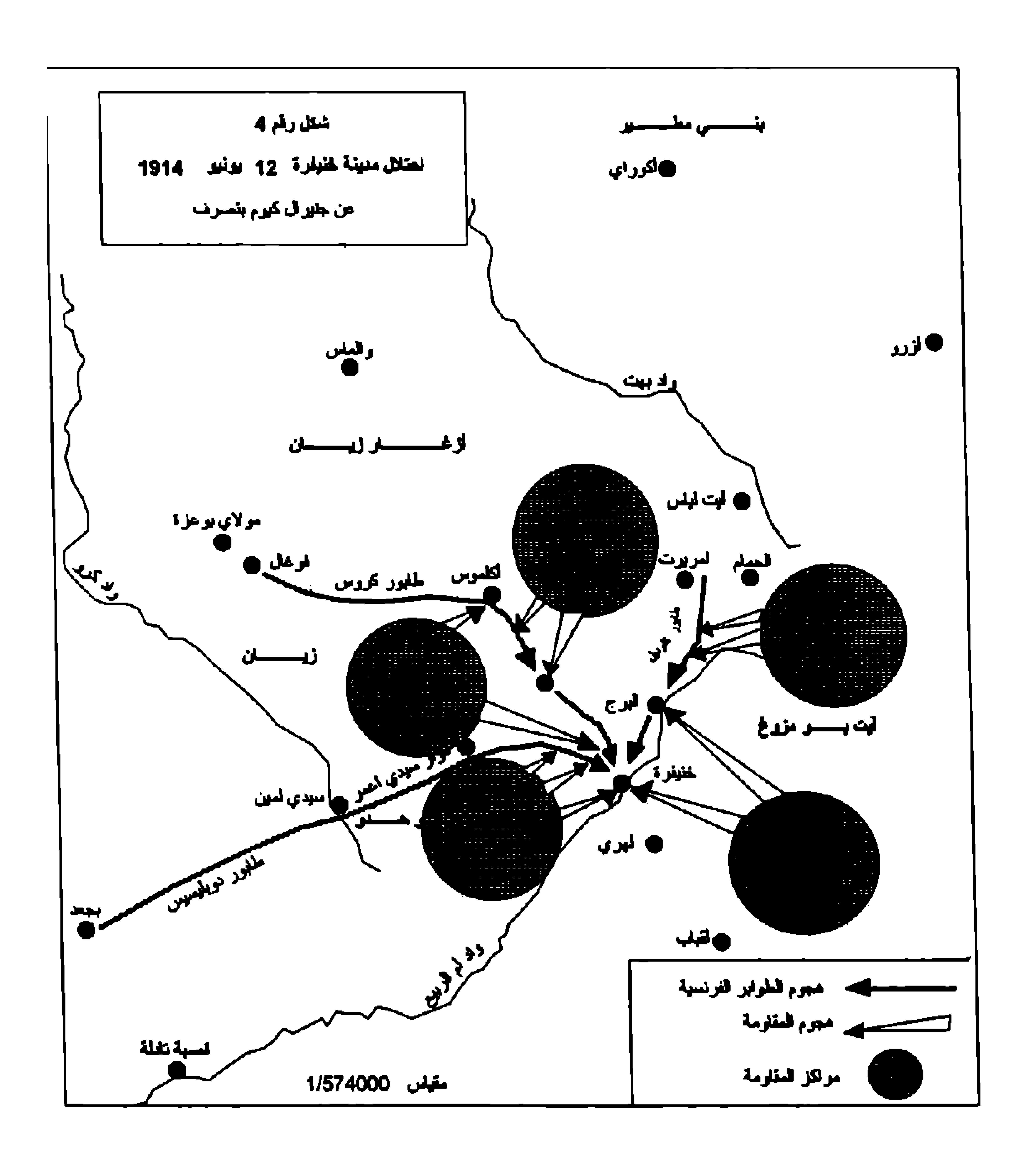

شكل رقم 1
المراحل الأولى للإحتلال الفرنسي
1914 - 1907
البحر الأبيض المتوسط
سبتة
طنجة
تطوان
العرائش
القصر الكبير
الريف
وزان
واد ملوية
وجدة
1907
واد سبو
القنيطرة
الرباط
المحيط الأطلسي
الدار البيضاء
1907
1908
1911
فاس
1911
مكناس
1914
تازة
الحاجب
1913
الأطلس المتوسط
1914
خنيفرة
قصبة تادلة
1912
واد أم الربيع
بني ملال
آسفي
الأطلس الكبير
الراشدية
1908
بوذنيب
واد زيز
واد غير
واد تانسيفت
1912
مراكش
أكادير
تارودانت
الأطلس الصغير
تيزنيت
واد درعة
0
50 كلم
المناطق المحتلة
زحف القوات الفرنسية

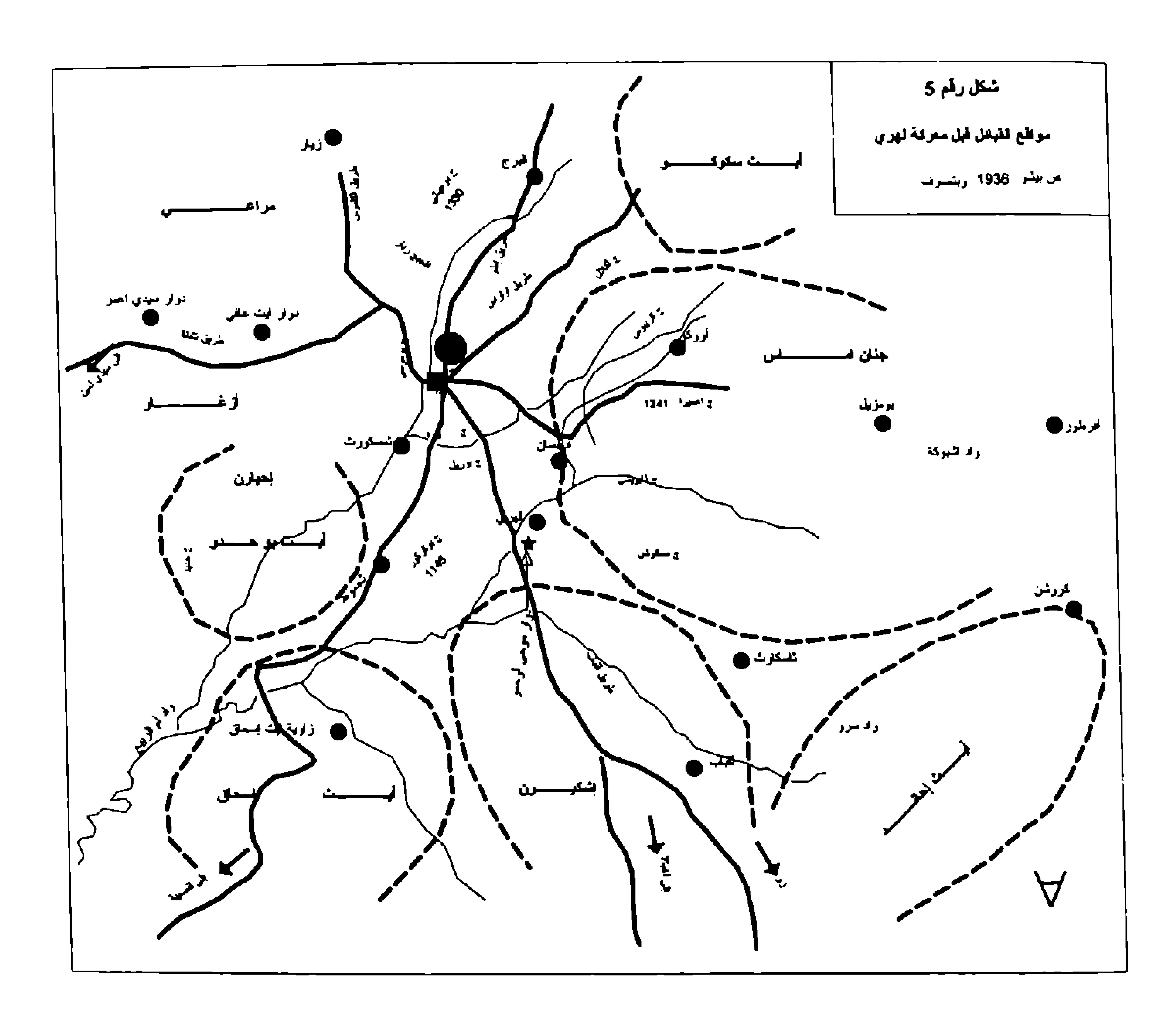


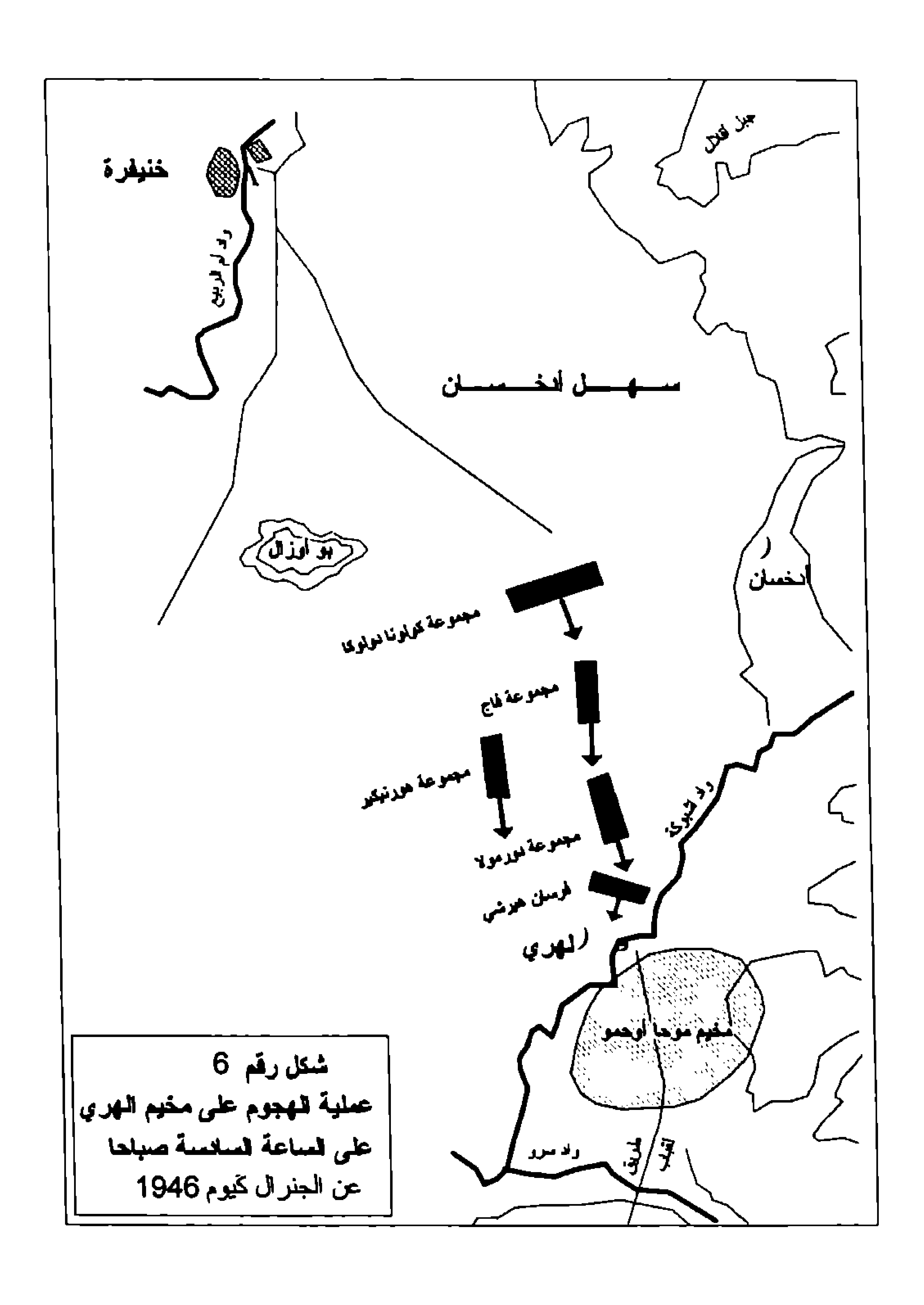
شكل 2 زيان و القبائل المجاورة
مكناس
الحاجب
ازرو
زيان
بني مكيلد
البرج
خنيفرة
بني زمور
واد زم
ابو الجعد
الزاوية
القباب
ملوية أيت إحند
ميدلت
أيت عياش
1337
قصبة تادلة
القصيبة
اشقيرن
إغبالة
2278
أيت سري
بوعطاس
2202
تونفيت
3751
أيت يحيى
2778
أيت سخمان
أيت حديدو
أسول
زاوية أحنصال
أيت يفلمان
0
25كلم
عن: AMG 509



شكل رقم 3
العمليات العسكرية في بلاد زيان سنة 1914
احتلال خنيفرة 10-12 يونيو
بنـــــي مطيـــــر
أكوراي
أزرو
والماس
أزغـــار زيـــان
آيت لياس
مولاي بوعزة
فوغال
اكلموس
الحمام
زيـــان
زيار
البرج
دوار سيدي اعمر
خنيفرة
آيت بـــو مزوغ
سيدي لمين
آيت بو حـــدو
لهري
بجعد
لقباب
قصبة تادلة
حدود المقاومة، أواخر 1913
حدود المقاومة، أواخر 1914


شكل رقم 4
احتلال مدينة خنيفرة 12 يونيو 1914
عن جنيرال كيوم بتصرف
بنـــي مطـــير
أكوراي
أزرو
والماس
واد بهت
أزغـــار زيـــان
أيت لياس
مولاي بوعزة
اكلموس
طابور كروس
لمريرت
الحمام
زيـــان
البرج
أيت بـــو مزوغ
خنيفرة
سيدي لمين
واد سيدي اعمر
لهري
طابور دوبلوس
بجعد
القباب
واد أم الربيع
قصبة تادلة
مقياس 1/574000
هجوم الطوابير الفرنسية
هجوم المقاومة
مراكز المقاومة


شكل رقم 5
مواقع القبائل قبل معركة لهري
عن بيشر 1936 وبتصرف
زيان
مراعـــــــي
آيـــت سكوكــــو
دوار ميدي احمر
دوار ايت عاقي
أزغـــــار
جنان امـــــاس
بومزيل
شكورت
إجهارن
آيــت بوحـــدو
1241
1145
1350
تاسكارت
كروشن
زاوية آيت بمحاق
آيـــت بمحاق
إشكــــرن
واد سرو
واد الشبوكة

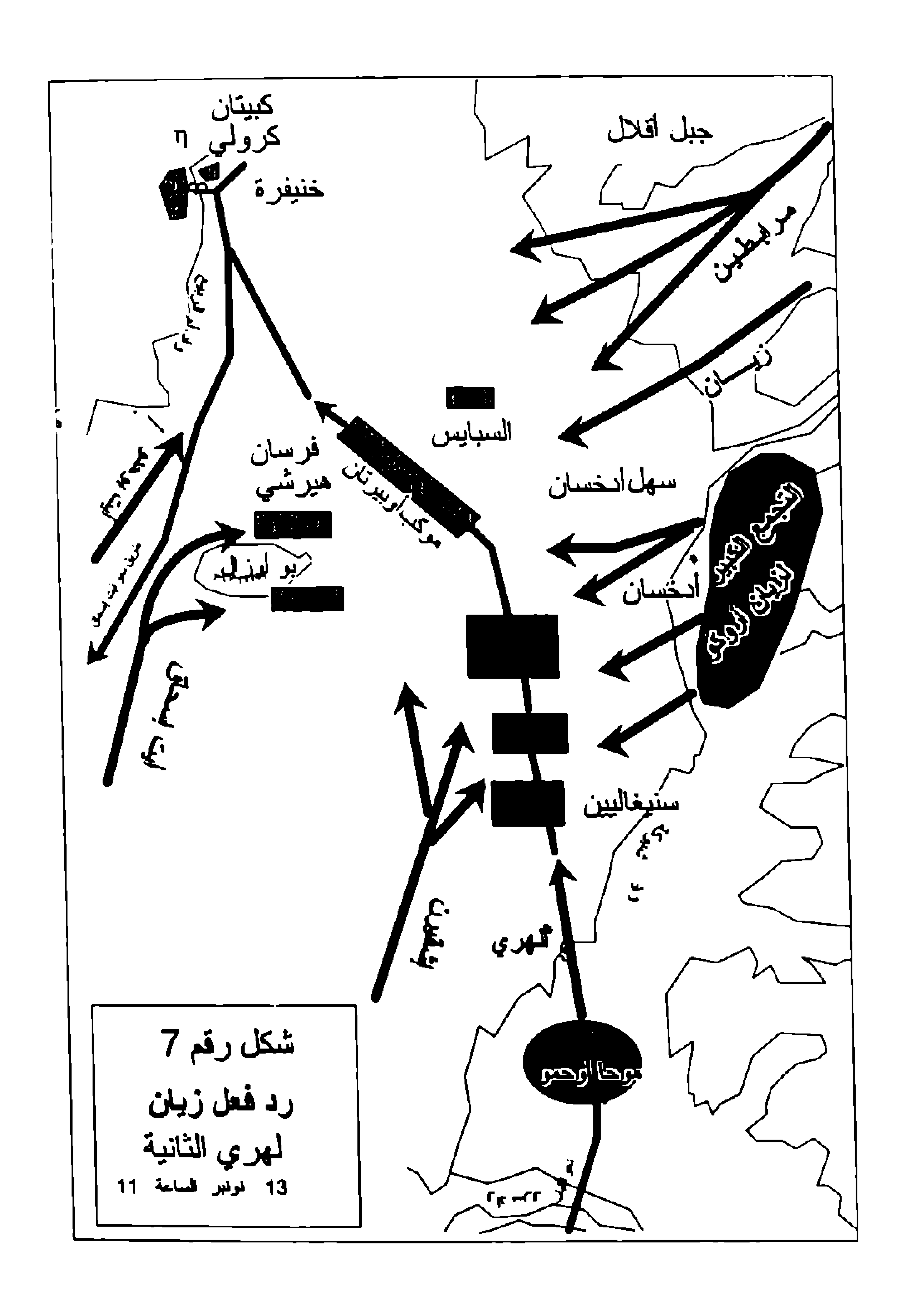


شكل رقم 6

عملية الهجوم على مخيم الهري

على الساعة السادسة صباحا

عن الجنرال كَيوم 1946



شكل رقم 7

رد فعل زيان لهري الثانية

13 نونبر الساعة 11

لائحة الرموز

A.M.G Ar drives du Ministère de la Guerre, Château de Vincennes – paris.

A.A.E = Ar drives des Affaires Etrangères – Paris.

محتويات الكتاب



إن الذي يفسر تدفق جماهير الفلاحين على لهري يوم 13 نونبر هو روح الجهاد في العقيدة الإسلامية، إنه الإيمان، والإيمان وحده الذي خالط سويداء قلوبهم، وتفوق على الأنظمة العسكرية. فقد كان الإسلام في المقاومة المسلحة المغربية الأداة الرئيسية، إن لم نقل الوحيدة في التعبئة على المستويين الفكري والروحي لمواجهة كل أشكال وأنواع الاحتلال الأجنبي. فباسم الإسلام وعن طريقه وبواسطته استنفرت القبائل، واستنهضت الهمم، وتوالت التضحيات، وسالت الدماء لتحرير الأرض الإسلامية من دنس المحتلين والغاصبين، وباسم الإسلام جاءت الجموع الغفيرة إلى لهري لتعلن للغزاة أنها تقف ضد التجزيء والتفكيك، وضد الاستلاب الثقافي والاغتراب اللغوي والحضاري.

